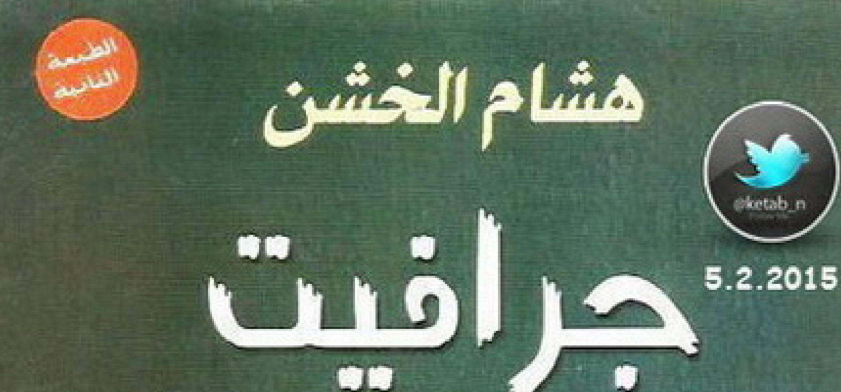


هشام الخشن



5.2.2015

جرافيت

رواية

مكتبة الدار العربية للكتاب

هشام الخشن

جرافيت

رواية

مكتبة الدار العربية للكتاب


جرافيت
رواية

الخشن، هشام.
جرافيت: رواية / هشام الخشن .- ط2.-
القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، 2014.
224 ص؛ 20 سم.
تدمك: 0 - 716 - 293 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- العنوان 813
رقم الإيداع: 9930 /2014

©

مكتبة الدار العربية للكتاب
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

الطبعة الأولى: رجب 1435 هـ - مايو 2014م
الطبعة الثانية: 2014م

إليكِ.. يا مصرية



باريس في 28 سبتمبر 1928

أبي الحبيب

هذه أولى رسائلي لك، وقد ملكتني أشواقي إليك، ولولا مراسلاتنا بالتلغراف التي طمأنتني عليك ما تأخرت حتى اليوم لأكتب خطابي هذا. ولكني ألتمس منك عذرًا إذ استخدمت الفترة الماضية منذ وصولي إلى باريس في التأقلم والتعود على ما سوف تصبح مدينتي حتى أحصل على شهادة الجامعة.

ولأنك أوصيتني ألا أترك تفصيلة دون أن أحكيها لك فسأبدأ من يوم رسو سفينتي في مارسيليا لا أستطيع أن أصف لك كيف وجل قلبي وتسارعت ضرباته، وأنا أهبط على سلم المركب إلى رصيف الميناء، وإن كانت أحاسيس الرهبة تلك سرعان ما تلاشت، وأنا وعضوات البعثة نجد أنفسنا وسط ضجيج وتدافع وفوضى جعلتنا أشد انتباهًا وتوجسًا وسط نظرات الفرنسيين لنا تتفحصنا وتصنفنا دون شك كأجنبيات. وقد وضح ذلك في طريقة تصرف رجال الجمارك معنا حين أصروا مبدئيًا على فتح جميع حقائبنا، ولكن للحق سرعان ما أنقذنا مبعوث الحكومة المصرية بفرنسا حين تفاهم معهم فرأيناه بأعيننا يهديهم صناديق سجائر سارعوا من بعدها بإنهاء إجراءاتنا، واتجهنا من فورنا إلى محطة سان شارل، وهي محطة قطار مدينة مارسيليا أجمل ما في المحطة سلمها الأبهة الذي يؤدي إلى صالات السفر، وقد ازدان جانباه بتماثيل من أفريقيا ومصر ليعبر عن أهمية هذه البلاد للمدينة ومرفأها.

كانت رحلة القطار طويلة ولكني استمتعت برؤية الجبال لأول مرة وكذلك الخضرة شديدة النضارة التي أحاطت بنا حيثما نظرنا طوال الرحلة. بعد أكثر قليلًا من ست ساعات وصل بنا القطار إلى باريس أو بالأحرى إلى محطة قطار ليون بقلب عاصمة فرنسا. مرة أخرى تسارعت دقات قلبي، ولكني صدمت يا أبي وأنا أنزل إلى محطة قطار شديدة التواضع لا تباري لا من قريب ولا من بعيد محطة باب الحديد ولا حتى محطة مصر بالإسكندرية. ولعل جزءًا من عدم ارتياحي هو أن هذه المحطة شهدت افتراقي ومعي زميلتي درية شفيق عن باقي عضوات البعثة اللواتي كن سيستكملن رحلتهن إلى كاليه، ومنها إلى دوفر في إنجلترا محل دراستهن. فقط أنا ودرية كنا مبعوثتان للدراسة بالسوربون، وقد سلمتنا المسز ماكدوال لمدير بعثات الحكومة المصرية بفرنسا الأستاذ الديواني حين وصلنا إلى باريس وكادت تطلب منه توقيعًا على استلامه إيانا وقد شرح لنا حضرته أن كلا منا ستقيم وحدها مع عائلة فرنسية فيما يسمونه "بنسيون عائلي" لحين عودة زميلتين مصريتين أخريين من إجازتهما الدراسية في شهر أكتوبر، وحينذاك سننتقل إلى شقة تجمعنا أنا ودرية والفتاتين الأخريين.

وقد كان من نصيبي أنا السكن مع اثنتين تحملان نفس الاسم: مدام دوبريه، ولكنهما متناقضتان تمامًا. مدام دوبريه الشابة صغيرة الحجم كروية الرأس عالية الجبهة مزورّة العينين، وهما مسحوبتان حتى تكاد تظنهما مغلقتين، فطساء الأنف حلوة الثغر صغيرة القدمين تمامًا مثل تخيلنا للآسيويات، فهي من بلد يدعى فيتنام. أما مدام دوبريه العجوز – حماتها – فهي ضخمة البنيان، شاهقة البياض، خداها بهما حمرة دائمًا، وعيناها زرقاوان يبدو لي أنها تمتعت بجمال وهي شابة ما زالت آثاره تطل حين تبتسم، وإن كانت لا تفعل ذلك كثيرًا إذ يبدو أن همها الأول إعطاء

التعليمات من علياء لزوجة ابنها الآسيوية المسكينة. أما المسيو دوبريه الابن فهو ضابط مهم في الجيش، متمركز حاليًا في السودان الفرنسية بعد أن كان في الحملة العسكرية في فيتنام حيث تعرّف إلى زوجته. عموما الاثنان في غاية الطيبة، وقد نجحت في مصادقة مدام دوبريه الكبيرة برغم مقاومتها ونظرتها الدونية لكل ما هو غير فرنسي بما في ذلك البشر.

أما باريس يا أبي فلا أستطيع أن أبدأ في وصفها؛ كم هي جميلة وشوارعها مبهجة ومبانيها تخطف النظر. أهم ما فيها هو النظام فالجميع مشاة أو ركابًا حافظون له، وكأنهم متدربون على اتباعه بدقة شديدة. طبعا أقضي أوقاتًا طويلة في متاحف المدينة المملوءة بكنوز من الرسومات والتماثيل المبهرة. أما ما خلب خيالي فكان برجًا حديديًّا هو الأعلى في عالمنا يا أبي يكاد يلامس السحاب أسموه على اسم مشيده المهندس جوستاف إيفل، وقد استغرقني أكثر من ساعة كي أصعد درجه إلى قمته (لأني خشيت استخدام المصعد الميكانيكي)، حيث رأيت باريس من أعلاه، وكأنها قزمت بمبانيها من حيث وقفت، فكان المشهد في خوالجي يبعث مزيجًا من ذعر الارتفاع وانبهار المعجزة التي صعدت درجاتها، ووقفت من أعلى نقطة ممكن أن يدركها بني آدمي في عالمنا. النهر الذي يشق باريس اسمه السين، وهو لا يقارن طولًا ولا عرضًا ولا جمالًا بنيلنا، ولكن للحق فقد اهتم أهل البلد بتزيين جوانبه لتصبح التمشية على جنباته مبهجة، وتسري على النفس فتجد الكثيرين ساعة العصاري يمشون الهوينا على ضفافه مستمتعين بالنسيم العليل. باريس حقيقة مدينة جميلة يا أبي وأنا على الدوام أمسك بكراس رسوماتي وأسجل به كثيرًا من مشاهدها الرائعة.

أكثر ما أستغربه هنا هو كم الأمريكيين الذي يبدو أنهم غزاة هذه المدينة. استعمروها بأموالهم الطائلة فتجد الفرنسيين وكأنهم تنازلوا عن أجزاء من كبريائهم مقابل دولاراتهم الخضراء. صخبهم وإقبالهم على الحياة يجعل باريس تنبض حتى أطلقت الصحافة هنا على هذه السنين عقد الجنون. لم ينتقل إلى هنا أثرياؤهم فقط بل انضم إليهم فنانوهم وأدباؤهم فاستعمروا المدينة التي يبدو أنها طالما داعبت خيالهم.

أما مباني جامعة السوربون فهي في منتهى الأبهة والفخامة، تملأ قلوب المقبلين عليها هيبة، وتصبغ على المكان ما يستحقه من وقار. لا أستطيع أن أصف مدى تحمسي وتشوقي لبدء الدراسة في هذه الجامعة ذات الصيت حتى إني كلما ذكرت لأحد أني طالبة بها وجدت في الأعين احترامًا وتقديرًا خاصًا لي؛ حتى مدام دوبريه الكبيرة أظنني ارتفعت عدة درجات في عينيها من جراء انتسابي للسوربون.

بالأمس أخطرني مكتب البعثات أن أستعد للانتقال مع زميلاتي المصريات اعتبارًا من الأسبوع المقبل، وأجدني سعيدة بذلك خاصة وقد أوحشتني صحبة درية التي أحببتها كثيرًا منذ تعرفت عليها على السفينة.

أبي العزيز.. أرجو أن تقبل يد نينة نيابة عني وأن تقول لها إني لا أنفك أفكر فيها، وإنها أوحشتني كثيرًا، وأرجو منها السماح أن سافرت دون إذنها. وبلغ حبي لبهيجة وأوصها أن تكاتبني، كلما استطاعت. وبلغ سلامي وتحياتي لعمي أيضًا.

قبلاتي وأحضاني لك يا أبي الحبيب وفي انتظار خطاباتك لي على أحر من الجمر.

ابنتك المحبة

نوال عارف

في عام 1928 أرسـلت وزارة المعارف المصرية 12 فتاة مصرية لاستكمال دراستهن الجامعية في إنجلترا وفرنسا.



1

«هوووووووو»

هكـذا علا صوت عم سـمعان الأجش وهو ينـادي على حصانه ويشـد الصـرع، ليتوقـف أمـام منـزل آل عـارف بمنتصـف شـارع المبتديان، قبل أن يرن جرس حنطوره النحاسي معلنًا وصوله.

مـن ثقـوب المشـربية تداخل رنين الجرس مع أشـعة الشـمس، وكأنهما مجدولتـان كضفيرتي نوال اللتين كانتا تزينان كتفيها، وهي جالسـة إلى مكتبها تضع بقلم رصاص أضناه الاسـتعمال اللمسات الأخيرة للرسـم الذي كانت قد بدأت خطه قبل يوم أو يومين. وكأن الرنين النحاسـي قرر اسـتدعاء واسـتعادة فتاتنا من عالم رسـوماتها منبهًا إياها إلى الوقت لتسـارع بإلقاء نظرة سـريعة في المرآة لتوكيد تمام هندامها قبل أن تبدأ في قطع طرقة البيت إلى الصالة.

حيـن وصلت نوال إلى الصالة، وجدت جدتها في موقعها الأثير على الأريكة المواجهة لباب الشقة، فتوجهت صوبها فقبلت جبهتها ومن بعدها يدها:

- صباح الخير يا نينة.

في عجالة مضغت نوال ما أعدته لها جدتها من إفطار قبل أن تسارع بطبع قبلة على جبينها وتتوجه إلى الباب، ولكنها لم تكد تخطو خارج الشقة حتى جاء صوت الجدة بالسؤال الذي يصاحب نزولها يوميًّا:

- خارجة من غير يشمك يا نوال؟

العجوز وحفيدتها اتفقتا على أن تستمر هي في تساؤلها، وألا يكون له رد كجزء من مراسم خروج الفتاة من البيت؛ سؤال وعدم إجابته كانا خير تعبير عن جيلين أحدهما توقفت آلة زمنه مقاومًا غير المعتاد، في حين تسارعت خطى الجيل الفتيِّ متلهفة نحو المدنية والمعاصرة والحداثة.

ما إن ركبت نوال الحنطور حتى أرخى عم سمعان لحصانه اللجام، فبدأ يخب في خطوات منتظمة قاطعًا الطريق من شارع المنيرة إلى جاردن سيتي، حيث يقبع مبنى مدرسة المير دي ديو المهيب. انتظم هذيب الجواد ومعه شردت التلميذة، فعاد بها ذهنها إلى الرسم الذي أنهته قبل نزولها. كان رسمًا لوجه أمها كما تصورتها، فهي لم ترها إذ توفيت أثناء ولادتها، فكان أن رسمتها من صورة متآكلة من قِدمها، يحملها أبوها في محفظته، وأخرى لهما معًا معلقة على حائط غرفة نومه، وإن تخيلت أكثر الملامح من وصفه لها بما يحمله قلبه من ولهٍ وحب كبيرين.

كانت القاهرة لا تزال نصف نائمة في هذا اليوم الصيفي من شهر مايو، رجال يسرعون في مشيتهم في اتجاه محطات الترام، وآخرون يدخلون إلى دواوين الحكومة المنتشرة في شارع قصر العيني. كانت المدينة تتثاءب، وهي تستقبل يومًا جديدًا، ونوال نصف حالمة، والحنطور يطوي الطريق بخطى رتيبة يحكمها لجام الحوذي سمعان، الذي ما لبث أن أخرجها من خيالاتها حين علا صوته آمرًا جواده: "هوووووووووووو"

ترجَّلت نوال أمام باب المدرسة، وخطت إلى داخلها كتفًا بكتف مع بنات الأرستقراطية المصرية المتهاديات في خفر من سيارات الباشاوات الفارهة وإلى جانبهن، وكأنهن يتسللن دون إذن، بنات الملاجئ من أيتام المسيحيات الملتحقات بالقسم المجاني بالمدرسة. لطالما رأت نفسها حلقة الوصل بين هؤلاء وأولئك من بنات المير دي ديو، فلا هي بنت باشا ولا هي بالقسم المجاني: هي نوال حامد عارف، بنت موظف بالبورصة المصرية، ومن عائلة موسرة اهتم والدها بأن تتلقى ما ظنه أفضل تعليم ممكن لفتاة أن تحصل عليه في مصر، ومن ناحيتها لم تخذله فتفوقت، وأضحت في سنة تخرجها، وعلى بعد خطوة صغيرة من الحصول على البكالوريا الفرنسية.

- نوال حامد عارف.

فاجأها نداء إحدى الراهبات عليها فوجلت:

- أفندم.

في صرامة استمرت اللهجة الآمرة:

- الأم ماري كلير تريدك في مكتبها.

ارتبكت وتسمرت مكانها، فهي الطالبة الأقرب للمثالية، التي لم يسبق أن استدعتها الراهبة الأم إلى مكتبها. لم يكن لها أن تستمر دون حراك طويلًا، والراهبة، التي أعطتها التعليمات، تشخص فيها بصرامة، غيرت وجهتها وبدأت تحث بخطوات متثاقلة متخاذلة قاطعة الرواق الطويل المؤدي إلى مكتب الناظرة.

2

«العتبة الخضرا».

صمت كمساري الترام لحظات قبل أن يعيدها: «العتبة الخضرا».

مناداة الكمساري على المحطة التي كان الترام على وشك الوصول إليها جعلت حامد يسارع بطي جريدة «المنار» وحشرها تحت إبطه قبل أن يضع طربوشه، ويهب واقفًا من كرسيه مستعدًّا للنزول. كان قد استغرقه مقال الأستاذ رشيد رضا، الذي يستعرض فيه بعض ذكرياته مع الإمام محمد عبده الذي يعشقه حامد ويراه وتعاليمه نبراسًا للإسلام الذي يحبه. المقال الذي شده استدعى في ذهنه ذكريات يوم حضر محاضرة الإمام في الأزهر الشريف مع أبيه وكيف ذاب حبًّا في سماحة هذا الرجل.

حين نزل من عربة الترام اتجه من فوره إلى شارع المغربي مسرعًا خطواته، وقبل أن يصل إلى الكنيس اليهودي القابع في وسطه دلف يسارًا عابرًا الشارع ليصل إلى شارع الشريفين. حين استقبل الشارع، طالعه المبنى الفخيم، المصمم على الطراز الفرنسي، الذي كان

وزملاؤه في البورصة قد انتقلوا إليه منذ أقل من شهرين. مبنى رائع يزين كل ما حوله، ويجعل كل مَن يعمل فيه مقبلًا وفخورًا بارتباطه به.

قبل أن يدخل توقف حامد لحظة يضبط طربوشه على رأسه ويمر بيده على حلته، ماسحًا أي ثنايا قد تكون تسللت إليها إبان رحلته من شارع المبتديان إلى محل عمله. بعد أن عبر البهو الرخامي أخذ السلم صاعدًا إلى الطابق الثاني، حيث يتوسط مكتبه صالة قلم حسابات البورصة. قبل أن يجلس خلع سترته، وعلقها على ظهر كرسيه ليظل بالصديرية، ومن تحتها رابطة عنقه السوداء، ثم ما لبث أن فتح درجه، وسحب منه أكمامه السوداء، التي يراها علامته كمحاسب، والتي يستعملها هو ورفاق المهنة حماية لنصاعة قمصانهم البيضاء من آثار الحبر وتراب الدفاتر، التي ينكبون عليها طوال يومهم.

من بداية تأسيس بورصة القاهرة وحامد يصعد سلمها الوظيفي من يوم اختار أن يترك لأخيه الأكبر محمود إدارة وكالة تجارة الحبوب مع أبيهم قبل وفاته، ثم الانفراد بها تمامًا بعد وفاة والدهم. أصبح اليوم في أعلى مركز ممكن لمصري، رئيسًا لقسم حسابات المضاربات، يعلوه فقط مديره الفرنسي المسيو لوجراند، رئيس حسابات بورصة القاهرة. لم يندم أبدًا على اختياراته، حتى إنه لم يتردد في بيع نصيبه في تجارة عائلته لأخيه يوم طلب منه ذلك قبل عامين، حين انضم كامل ابن محمود لأبيه في الوكالة بعد أن

حصل على البكالوريا. وقتها وجد حامد مطلب أخيه عادلًا، ووجد استمراره شريكًا في وكالة الحبوب لا منطق له معترفًا بأنه لا يبذل أي جهد في هذه التجارة، فلم يرتضِ أن يكون «الورث» سببًا في أن يستمر هو في حصد ثمار مجهودات أخيه وابنه. المبلغ الذي قبضه من محمود كاد يتضاعف حين ضارب به حامد في البورصة قبل أن يسحبه وأرباحه كلها ويبيع الأسهم جميعها بناءً على نصيحة وإصرار مديره المسيو لوجراند. علاقة حامد ومسيو لوجراند كانت شديدة الودية، فلقد وجد الفرنسي في موظفه المصري نموذجًا يُحتذى لمن يجيد عمله، ويؤديه على أكمل وجه، عكس صورة داكنة صورها له أجانب آخرون عن نوعية وقدرات المصريين في العمل. ومن ناحية حامد كان الفرنسي يمثل له عالمًا طالما أراد التواصل معه، عالم الغرب وحضارته وبالذات فرنسا، التي عشقها دون أن يراها. ولعل احترام لوجراند لحامد وعدم ضنه عليه بخبرته سواء المهنية أو الحياتية قد وطد ووثق عرى العلاقة بين الرجلين؛ فلم يعد عملهما معًا يحد صداقتهما فامتدت لأبعد من ذلك، وكثرت لقاءاتهم خارجه.

واليوم كانا على موعدهما الأسبوعي للقاء بعد انتهاء العمل ليتشاركا في كوبي البيرة الأسبوعيين في مقهى ريش.

ما إن أشارت عقارب الساعة إلى الثانية حتى سارع حامد إلى إقفال دفاتره ومغادرة مكتبه. تلهفه على لقاء مديره في «ريش» هذا

الأسبوع كانت وراءه رغبة في معرفة مصير التوصية التي طلب من لوجراند أن يطلبها من صديقه مستشار اللغة الفرنسية بوزارة المعارف. فضوله جعل للهرولة نصيبًا أكبر من المشي، وهو متجه إلى شارع بشير باشا حيث مقهى ريش.

ما إن فتح باب المقهى حتى رأى الفرنسيين على منضدة مجاورة؛ لمحه لوجراند فلوح له أن ينضم إليهما. حين أصبح أمامهما صاح مديره:

- حامد أفندي.. أعرفك على المسيو روسيل صديقي.

ثم استدار بنصف جسمه تجاه مواطنه ورفع كوب الجعة، وهو يصيح في نشوة وسعادة:

- روسيل، صديقي.. ارفع كأسك وهنئ حامد أفندي على الخبر السعيد.

3

بجلبابه الأبيض الناصع الذي ارتداه بعد انتهائه من مسح السلم، ارتكن عم إدريس على دكته أمام العمارة متفحصًا أوجه مَن يمرون أمامه؛ كاشفًا لمن يختار كل آن وآخر عن صف أسنانه شديدة البياض، التي تسطع من وسط وجهه نوبي التقاطيع. انتبه من تأملاته على حامد يأتيه متعجلًا فيعبر مدخل البناية دون أن يعيره اهتمامًا فلم يدرِ إدريس إن كان تجاهله أم لم يسمعه أصلًا حين حيّاه وهو يهرول نحو السلم. عزة النفس النوبية لدى إدريس لم تسيطر عليه فأبى أن يكون رب عمله قد تجاهله، وأوعز هرولته من أمامه وعدم رده على تحيته إلى أمر جلل، فما لبث أن عاد مستكينًا إلى جلسة العصاري.

لم يدخل حامد إلى شقته، بل توجه إلى شقة أمه المواجهة لها ففتح بابها ودخل ليجد أمه متكئة على الأريكة، التي تتوسط الصالة. مشى حامد إلى حيث تجلس فلثم يدها وقبل جبهتها، وهو يقول:

– مساء الخير يا نينة.

لم يجئه رد، وهو يعتدل في وقفته مبتسمًا، فاستكمل ما جاء بصدده:

- عندي خبر حلو.

استغرب حامد الصمت الذي يلف الصالة فلف عنقه ليجد نوال منكمشة على نفسها دافسة رأسها بين رجليها اللتين رفعتهما على مقعدها، وقد التصقت بها بهيجة ابنة عمها وإحدى يديها تربت كتفها، والأخرى تعدل في عجالة طرحتها لتغطي خصلة من شعرها تسللت، وكأن مَن دخل لتوه غريبًا، وليس عمها.

عاد حامد ينظر إلى أمه.. متسائلًا:

- خير؟؟

في صرامة جاءه صوت أمه:

- اسأل بنتك!! اسأل الهانم عن الخبر الذي رجعت به من المدرسة ! وتزفه لي على أنه بشارة.. مجنونة!!

التفت الرجل إلى ابنته والحيرة تتملكه:

- أي خبر؟

لم يكن جسد نوال يرتجف ولكن رعشة داخلية كانت قد أخذتها فتجلت في صوتها، وهي ترد عليه، فانكسرت الكلمات وغلبت التهتهة، واختلطت دموعها:

- الأم ماري كلير طلبتني في مكتبها، وأبلغتني أني تفوقت في امتحان البكالوريا، وتم ترشيحي..

وكأنها فقدت القوة علىٰ إكمال جملتها فتوقفت عن الكلام، فلم تكن قادرة على أن تتلقى مزيدًا من توبيخ جدتها وغضبها إن استرسلت، ففاجأها أبوها بأن أكمل جملتها:

- رشحوكِ لاستكمال دراستك بالجامعة في فرنسا..

جاء رد نوال بأن أغلقت عينيها موافقة، وكأنها تتفادى غضبة جدتها التي كانت متأكدة من أنها آتية..

- أنت على علم بالموضوع يا حامد؟

- عملت توصية عند المسيو روسيل مستشار اللغة الفرنسية في وزارة المعارف ما إن عرفت أن الملك نبه على الوزارة بأن ترسل بعثة للبنات و..

لم تحتج العجوز إلى أن تسمع المزيد فأربدت.. وانفجرت قائلة:

- يعني البنت وارثة جنونها منك.. ماذا نقول للناس؟ بعثنا ابنتنا تعيش وسط الأجانب وحدها!!

ازداد احتضان نوال لركبتيها وكأنها تحتمي من الشرر المتدافع من غضبة الجدة. لم ترها في مثل هذا الانفعال ولا الغضب يومًا؛ في حين وقف الأب محتارًا أمامها، وهي تسترسل في رفضها لما كان يظنه هو وابنته خبرًا سعيدًا. أدركت الفتاة في تلك اللحظة أن

الأحلام، التي تدافعت عليها منذ أخبرتها الأم ماري كلير بترشيحها قـد انتهت عنـد رفض مَن ربتها للفكـرة. أرادت أن ترفع الحرج عن أبيهـا، وتعلـن أنها لن تسـافر، ولكن لـم تكن بها قـوة حتى لصوت يقـول مـا دار بذهنها. صمتـت وتركت هي ووالدها الجدة مسـتمرة فـي ولولتهـا على خبل ابنها وحفيدتها حين ظنـا الخبر الذي حملاه سعيدًا أو بشرى.

4

من وسط قيظ أغسطس في بوغاز الإسكندرية علا صوت صافرة السفينة شيروبشاير، محذرًا مَن على متنها، ومَن يودعونهم بأزوف ميعاد المغادرة. وصل الإنذار إلى مسامع نوال، وهي واقفة على سطح السفينة ونظرها شاخص إلى والدها الذي وقف على رصيف الميناء، ويداه مستمرتان في التلويح لوحيدته، وكأنه فاقد القدرة على إيقافهما، ومعهما استمرت دموعه في ترطيب وجهه في هذا اليوم شديد الحرارة.

دموع نوال كانت أيضًا منهمرة، وهي تستودع والدها، وإن بدا أن صوت الباخرة المدوي قد لفها بطريقة ما وأخذها من حيث تقف ليعود بها زمنيًا إلى ما قبل صعودها إلى السفينة واتكائها على سورها، وهي تودع الإسكندرية ومصر كلها.

بدأت رحلة ذكرياتها، وهي دافسة وجهها المبلل من فرط البكاء بين ركبتيها على الأريكة في ذلك اليوم الحزين في بيت جدتها التي أخذت تقسم بأن نوال لن تسافر بعثة الجامعة طالما بالعجوز قلب ينبض..في هذا اليوم أيقنت الفتاة اليافعة بأن الحلم الذي بدأ مع

إبلاغها الخبر من قبل الأم ماري كلير ناظرة مدرستها الميز دي ديو قد انتهى بردة فعل جدتها، التي ربتها ولعبت دور أم غابت بسبب موت مبكر اختارها يوم ولدت.

أي ذهول أصاب نوال في الأسبوع التالي، حين همس حامد في أذنيها أن تستعد للنزول معه للتسوق مع توصيات متكررة وقلقة بألا تخبر أحدًا عن مشوارهما المزمع. لم تكن أول مرة يأخذها والدها بالترماي إلى ميدان الخازندار، ومنه يخطوان سريعًا إلى درته وزينته: محل صيدناوي. لم يتحدث والدها كثيرًا أثناء رحلتهما، ولكن ما إن دخلا المحل حتى التفت إليها مصرحًا:

- نوال، أريدك أن تشتري كل ما يمكن أن تحتاجيه لسفرة باريس..

من فرط ذهولها ظنت نوال أن ما سمعته من أبيها تهيؤات أو خيالات، ولعل هذا ما ظهر له، وهي ناظرة إليه فاغرة فاها فابتسم بسعة:

- نعم يا مدموزيل نوال.. ستسافرين بعثتك لفرنسا إن شاء الله..

في المحل الفخيم تجولا ساعتين أو أكثر وهما يشتريان ما ظنا أن مبعوثة جامعية في باريس قد تحتاجه. حين انتهت نوال

من اختياراتها ذهبا إلى قسم الأمتعة واشتريا حقيبتي سفر كبيرتين لتتسعا لمشترياتها. كان السؤال الذي يحير الابنة وإن اختارت ألا تسأله توجسا من إفساد لحظات سعادتها مع والدها:

- كيف وافقت جدتها على سفرها؟

لعل أول خيوط إجابة السؤال جاءت نوال حين وجدت أباها يتوجه بها وحقائبها إلى بيت خالتها بالعتبة بعد أن فرغا من صيدناوي. هناك شرح لها أنه اتفق مع خالتها على ترك حقائبها عندها إلى حين ميعاد السفر. بنوع من الخجل به مسحة حزن قال لها حامد إن أمه لن توافق على سفرها أبدًا، ولكنه في الوقت ذاته لن يفوت على ابنته ما يراه فرصة عظيمة؛ لذا ستسافر نوال بعثتها، وسيتولى هو إصلاح الأحوال مع الجدة بعد السفر، وهو المتيقن أن قلبها سيلين بعد أن يصبح الموضوع أمرًا واقعًا.

مرت الأيام سريعًا وحامد ونوال يعدان في سرية أوراق وتفاصيل واحتياجات سفرها. اجتهدا ونجحا في إخفاء مخططهما عن الجدة وعن كل أفراد العائلة في بيت المبتديان.

قبل أسبوع من الميعاد المرتقب أعلن حامد أنه تم تكليفه بمأمورية عدة أيام لدى بورصة الإسكندرية في الأسبوع التالي وأنه سيصطحب ابنته معه لتغيير جو.

في يوم المغادرة أعدت نوال حقيبة صغيرة مناسبة لسفرة عدة أيام، كما أوصاها أبوها، وجلست تتناول إفطارها مع جدتها وابنة عمها بهيجة التي انضمت إليهما مبكرًا في هذا اليوم. حين أتى حامد لاصطحاب ابنته، وقامت هي تسلم على مَن شاركتها إفطارها، ارتمت البنت في أحضان جدتها ومن بعدها ابنة عمها بهيجة ودموعها منهمرة دون توقف، وبكاؤها به نوع من التشنج حتى إن السيدة العجوز نظرت في استغراب لابنها.. وهي تقول:

- مالها بنتك يا حامد.. كل هذا من أجل يومين في الإسكندرية؟

بسرعة تدخل حامد ليسحب نوال من أحضان بهيجة.. وهو يضحك:

- يا نوال سيفوتك البحر.

- خارجة من غير يشمك يا نوال؟

وكأنما أرادت الجدة أن تكون آخر كلماتها لحفيدتها قبل السفر تذكرة بما أرادته لها من تمسك بتقاليد على حافة الاندثار.

من المبتديان إلى العتبة حيث بيت الخالة ليأخذا حقائب السفر، ومنها بحنطور عم سمعان إلى محطة مصر، حيث استقلا القطار ليصلا إلى الإسكندرية ونوال طوال هذه الساعات بين نهنهة بكائها

وكفكفة دموعها ووالدها يصبرها بين الفينة والأخرى ويذكرها بأنها على وشك بدء رحلة استكشاف لعالم وآفاق جديدة، وأنها في الأغلب وقت العودة لن تجد تغييرًا ولن يفوتها كثير مما يجري في مصر، والتي اختار أهلها دومًا بطء دوران عقارب حياتهم.

اختار ربان السفينة أن يعيد نوال إلى عالم الواقع فصلاح صوته بتعليمات فك الأحبال التي تربط الباخرة بالرصيف، وتلا ذلك صوت السلاسل الحديدية، وهي تلطم جنبات السفينة ساحبة الهلب في طريقها للتخلص من ربطة الرسو. ما لبث أن تلا ذلك علو صوت الصافرة مرة أخرى في إنذار أخير على نية السفينة في التحرر والإبحار.

حينذاك نظرت نوال حولها لترى زميلاتها في البعثة، وهن يلوحن إلى أهاليهن في حماسة، وإن امتزجت بمسحة حزن أكيدة من ألم الفراق. في ذهنها حاولت تذكر أسماء زميلاتها: كريمة، نظيرة، سميحة، كوكب، ثم توقفت ذاكرتها عند هذا الحد، وهي تعلم أن هؤلاء هن المبعوثات إلى إنجلترا. أخذت عيناها تجوبان بين الأجساد الملاصقة لسور السفينة بحثا عن زميلتها التي سترافقها إلى باريس فلم تجدها. كن جميعًا يواجهن رصيف ميناء الإسكندرية وعليه أهاليهن، وهو يتقلص ويتقزم ليصبح تفاصيل صغيرة في صورة تتثبت حركتها كلما تحركت السفينة صوب البحر المفتوح.

- يا بنات.. لو سمحتن كل واحدة تأخذ مفتاح كابينتها.

هكذا نادت مسز ماكدوال مشرفة الرحلة وهي تستدعي عضوات البعثة إلى حيث وقفت في وسط سطح الباخرة. تجمعن جميعًا ولكن ماكدوال عدتهن فوجدتهن إحدى عشرة ينقصهن واحدة. أخذت تجوب بنظرها بحثًا عن الطالبة المفقودة حتى تعرفت عليها من ظهرها أو من وقفتها الممشوقة وجسدها النحيل الذي يكاد يتلاشى عند وسطها فما يلبث أن يعود من جديد بساقين رفيعتين تمامًا مثل صور الباريسيات في مخيلة الشرقيين. هناك على الجانب الآخر من السفينة، وبينما وقفت كل البنات وأنظارهن صوب الإسكندرية تودعن الأهل والبلاد؛ وقفت هي مستقبلة مارسيليا متوجهة بعقلها وقلبها نحو عالم جديد انتوت أن تغزوه، وتنهل منه ما استطاعت من معرفة وتفتُّح وحياة.

في عصبية ولوم نادت عليها المسز ماكدوال:

- درية..

ثم علا صوتها وزادت لكنتها الأسكتلندية حدة:

- درية شفيق.. تعالي هنا.

5

لملمت بهيجة أطباق الفطور بعد أن غادرها زوجها حلمي أفندي الأهواني عائدًا أدراجه إلى مقر عمله. كان قد مر على زواجهما شهر أو أقل أمضت منه أسبوعين في حجرته بمنزل عائلته بالإسماعيلية قبل أن تعود إلى شقتهما في بناية آل عارف بالمبتديان كما هو مخطط ومتفق عليه منذ تقدم لها. زفافها تأجل عامًا وبضعة أشهر حدادًا على وفاة أمها بسبب سُل أصاب جسدها الواهن إثر صراع سنين مع مرض السكري.

حلمي ابن الحاج عبد العليم الأهواني أحد تجار الإسماعيلية من معارف أبو بهيجة الحاج محمود عارف، والذي تقدم طالبا يدها من فور حصوله على دبلوم المعلمين، وعقب تعيينه مدرسًا للتاريخ بمدرسة الإسماعيلية الابتدائية الأميرية.

يومان كل أسبوع كانا نصيب بهيجة من حلمي لحين إنهاء إجراءات نقله إلى مدرسة المنيرة الابتدائية بالقاهرة، والتي استخدمت العائلتان كل معارفهما من أجل حدوثه وجاءتهم الوعود بإتمام المراد مع بداية العام الدراسي الجديد.

بعد أن أتمت غسـل الأطباق قامت بهيجة لتسـتحم من أثر ليلتها مع زوجها الذي اختصر علاقتهما في مواقعتها ليلتين متتاليتين نهاية كل أسـبوع قبل أن يعود أدراجه إلى الإسـماعيلية. باقي اليومين إما جالـس مع أبيها يتحدثان فيما لا يسـرده عليها مـن أمور الرجال، أو منطلـق إلى أحـد مقاهي المنيـرة ليلتقـي صحبه من زملاء مدرسـة المعلمين. برغم شـح كلام حلمي مع بهيجة فقد رأته طيب العشرة، مهذبًا معها إلى أقصى الحدود، متدينًا لا يفوته فرض من الفروض، وحسـن النية بإفراط؛ فأخذت على نفسـها أن تفك عقدة لسانه معها بمرور الوقت.

بعـد أن أنهت حمامها وقفت بهيجة أمام المرآة تجفف جسـدها الملفوف. ابتسـامة إعجاب علت وجهها، وهي تسـتعرض تفاصيل جسـدها الممتلئ كما ينبغـي ودوراناته. حاولت اسـتدعاء تفاصيل ليلة الأمس فلم تجد اختلافًا فيها عن أي مما قبلها؛ دائمًا بعد العشاء ما يأخذها حلمي إلى حجرة النوم فيلقيها على السرير خالعًا جلبابه، وهـو يطالبها بأن تتعرى، ومن بعدها يأتيها سـريعًا، متناسـيًا مرة من بعد مرة القبلات أو المداعبة، التي تنتظرها الأنثى من وليفها، والتي كانت موجودة ولو على اسـتحياء فترة وجيزة بعد الزفاف. تنظر هي إلـى السـقف لحين ينتهي مـن جثومه فوقهـا لينقلب فجأة ويسـارع بلبس جلبابه، ويتلو ذلك علو صوت شخيره معلنًا انتهاء اليوم.

ولكن بهيجة كانت سعيدة بزوجها، فخورة بأنها تستثيره، خاصة حين فكت جدتها عقدة لسانها وجعلتها تحكي لها ما يدور بينهما، مطمئنة إياها أنها غدت امرأة ويحق لهما أن يتهامسا معًا في أمور النساء. تتذكر أول أحاديثهما حين طمأنتها جدتها أن هذا شيمة الرجال، وأن أهم ما يجب أن تهتم به بهيجة هو أن يظل حلمي مشتهيًا إياها دون انقطاع، وأن ذلك واستمرار استمرائه لطبيخها هما السران الأزليان لحياة زوجية هنيئة.

نوال ليست فقط ابنة عم بهيجة، ولكنها صديقتها الصدوق وكاتمة أسرارها، وإن لم يكن جائزًا أو مقبولًا للعروس أن تشرك بنت عمها أسرار الزوجية، وهي بعد فتاة. تربت الفتاتان معًا وكانت الجدة الأكثر تأثيرًا، وتدخلًا في تربيتهما بحكم مركزها وسطوتها على العائلة، بالإضافة أيضًا لاستسلام أم بهيجة لحماتها ربما لكثرة مرضها أو عن اقتناع بتوجهات وتوجيهات الجدة التي طالما نظرت لها على أنها مثل يحتذى. ما بين الأم والجدة تم استنساخ بهيجة لكبرت وترعرت، وهي تُعد للزواج وهدفها الأسمى إنشاء بيت به أولاد تربيهم وتسعد بهم. توقفت عند الابتدائية كنصيب كافٍ من التعليم الذي لم تكن ذات ميل إليه من الأصل، ومن بعد ذلك وحتى خطبتها وزواجها تركزت حياتها على إتقان فنون الطهي والحياكة وكل ما يتعلق بشئون البيت. أما نوال فقد خاض أبوها المعارك من أجل استمرارها في التعليم، وناله ما نال من استهجان

ومصمصة شفاه وتهكم عبر السنين؛ كل هذا لم يمنع الفتاتين أن يشبا معًا وهما اقرب للأختين.

حين تقف ابنتا العم جنبًا إلى جنب لا يمكن للناظر أن يتخيل علاقة قرابة أو دم أو حتى نسب بينهما: نوال نحيفة بيضاء شعرها كستنائي كأمها، وجهها طويل يزينه أنف دقيق صغير وعينان ملونتان مستديرتان، وشفتان رفيعتان وإن كانتا شديدتي الحمرة، في حين بهيجة قمحاوية ممتلئة بعض الشيء، وجهها مستدير، عيناها كحيلتان تزيلان أثر أنفها المفلطح بعض الشيء الذي يعلو أحلى ما في وجهها، وهما شفتاها المكتنزتان، اللتان تخفيان ابتسامة لصف من اللآلئ خلفهما. وإن اختلفتا شكلا فقد تتواءمان في كثير من خلقهما.

بعد أن أنهت بهيجة حمومها ولبست ثيابها خطت في تكاسل وكأنها تتدرب على الخفر، وهي تخرج من شقتها لتنزل إلى بيت جدتها؛ سيدة البناية والعائلة.

في الوقت الذي كانت فيه بهيجة تتسامر و«تودود» مع جدتها، كان حَلمي على مشارف الوصول إلى الحسينية في البحيرة، التي كان سيقضي بها ليلته قبل أن يستكمل سفرته إلى الإسماعيلية من فجر غده. دعاه صديقه أحمد السكري[1] لحضور جلسة ذكر

(1) أحمد السكري أول وكيل لجماعة الإخوان المسلمين.

يشـرفها ويحييها الشـيخ عبد الوهاب، شـيخ الطريقة الحصافية. لم يكـن حلمي متصوفا بقدر مـا كان قلبه يصبو ويرفـرف في مثل هذه الحلقات والأجواء، ويجد فيها استكمالًا لتدينه واستقامته.

مـر الوقـت من سـاعة وصـول حلمي إلـى دار آل السـكري إلى وقت صلاة العشـاء سريعًا، وما لبث الشيخ الحصافي أن ألقى درسًا علـى الحضور ملك به أفئدتهم بما احتواه من الرقائق والرحمانيات قبـل أن يبـدأ حلقـة الذكر. كان صوت الشـيخ يمس شـغاف القلب فيلهـج من ورائـه المريدون رافعيـن الأصوات بالتسـبيح والتكبير، مكررين الأذكار والتسـابيح وهـم منتشون. مع انتهاء الحضرة ارتاح الحاضرون قليلًا قبل أن يصلوا ركعتي حمد وشكر لله خلف الشيخ الـذي مـا لبـث أن غادر ليرتـاح. قبـل أن ينفض الجمـع أخذ أحمد السكري حلمي من يده قائلًا:

- تعـالَ أعرفـك على زميلـك في مدرسـة الإسـماعيلية.. أكيد تقابلتما من قبل.

نظر حلمي إلى من أشـار إليه السكري فوجده فعلًا وجهًا مألوفًا لديـه، تذكـر رؤيتـه بالمدرسـة بلحيتـه المحفوفـة المميـزة، وعينيه اللامعتيـن المملوءتين طاقة وذكاءً وإصرارًا على هدف ما، وإن كان غير معلوم، وجه يجذب مَن ينظر إليه، ويشد المرء بطريقة أو بأخرى إلى صاحبه؛ نادى السكري على الرجل:

- يا أستاذ حسن.. أعرفك على الأستاذ حلمي الأهواني، صديقي وزميلك في المدرسة.

ثم نظر أحمد السكري إلى حلمي مقدمًا الرجل إليه:

- الأستاذ حسن البنا يا حلمي.

6

على ناصية زنقة الخضراوي مع شارع شامبليون وقف كامل عارف مع صديقه ليفون كركوريان يدخنان سيجارتيهما بعيدًا عن أعين والديهما؛ أو بالأحرى بعيدًا عن أعين الحاج محمود إذ إن الخواجة إدوارد كركوريان لم يجد غضاضة في تدخين ابنه أمامه، ولد وصل سن الرجولة. صداقة كامل وليفون ممتدة سنين تجاور وكالة آلَ عارف ومسبك نحاس كركوريان.

على قدر اختلاف شاكلة ومظهر الشابين بقدر ما تطابقت سلوكياتهما وإقبالهما على الحياة. كامل خمري اللون به مسحة من دكانة تربطه بأصول العائلة الصعيدية، وشعره الأسود أجعد يستهلك كثيرًا من الفازلين ليعطيه لمعة في ظنه أنها تجعله أكثر جاذبية، وتخطف النظر من عينيه الضيقتين وأنفه المفلطح بعض الشيء اللذين يتممان مع شفتيه الدقيقتين وجهه النحيف. أما ليفون فشعره بني ناعم يحف جوانبه، ويترك أعلاه أطول على صورة الجنود الإنجليز، ومع بياض بشرته ودوران وجهه الذي يتوازى مع سمنته ودوران جسده لا يترك مجالًا لشك الناظر في أورُبيته.

نعم كان الشابان قد نزلا مجال الأعمال مع والديهما، ولكنهما اكتفيا بمظهرية ابن صاحب الشغل، وتمتعا بنظرات احترام العاملين عند والديهما، فلم يكن لأيهما مدخول حقيقي في الأعمال سوى الشكوى لبعضهما من ضيق أفق أبويهما، وعدم استجابتهما لاقتراحاتهما الشبابية فيما يخص الأعمال. لقاءات التدخين على الناصية تمحورت دائمًا على استعادة مغامرة ليلة مضت والتخطيط لليلة قادمة، وإن تخلل بعضها حكايات ليفون لكامل عن الثروات التي يصيبها أقاربه الأرمن من سمسرة البورصة، وبعض خطط لكيفية غزوهما يومًا لمجال الأسهم والسندات، وصعودهما عالم الوجاهة والأعيان.

وقفتهما كالعادة اشتملت أيضا على معاينة السيارات المارة، والتي تحمل الفتيات الأرستقراطيات في طريقهن إلى محل جروبي ملتقى البورجوازية المصرية.

قطع ليفون الحديث الدائر مع صديقه حين غمز له، وهو يومئ برأسه تجاه الميدان الذي أعطاه كامل ظهره قبل لحظات؛ ليستدير كامل فيرى عمه ماشيًا صوبهما. أسرع كامل بإلقاء سيجارته وحذا صديقه حذوه، وهما يدوسان على العقبين، وكأنهما يخفيان آثار جريمتهما. وفي حين أسرع ليفون عائدًا إلى المسبك، اتجه كامل إلى عمه مرحبًا:

- خطوة عزيزة يا عمي.. يا أهلًا وسهلًا.. يا أهلًا وسهلًا.. اتفضل يا عمي..

ما إن اقترب كامل من عمه حتى احتضنه وقبله، وكأنه لم يلتقه منذ أمد بعيد حتى استغرب حامد هذا الاستقبال الحميم من ابن أخيه، والذي لا يتسق مع الصمت والبرود والبعد الذي تتشّح به تصرفات الشاب في بيت العائلة حين يلتقونه في الأوقات القليلة التي يسمح لهم بها.

ما زال المكتب البلوطي الكبير يتوسط الوكالة وبجانبه الخزانة الحديدية ومن خلفهما الأبواب الحديدية الضخمة التي تحمي المخازن خلفها؛ تمامًا كما وضعهما وحيث أرادهما والد محمود وحامد. ما زالت الأرض بنفس بلاطها، والحوائط تغير لونها بفعل الزمن فازدادت دكانة عن اللون الحمصي التي كانت مدهونة به يوم افتتاح الوكالة. وكأن صورة فوتوغرافية أخذها المصور يوم الافتتاح فحفظ للمكان كل تفاصيله بدقة دون حراك، اللهم إلا ما بهت منها بفعل الوقت، وإن التزم كل شيء بموقعه دون أدنى تغيير. كانت الإضافة الوحيدة التي زادت على المكان هي مكتب خشبي أصغر حجمًا التصق بطرف المكتب الكبير في الاتجاه العمودي عليه. سحب كامل الكرسي وهو يمسح التراب من عليه داعيًا عمه للجلوس.

لم يكد حامد يجلس حتى خرج أخوه محمود من بين أبواب المخزن الحديدية، وهو ينفض الأتربة عن جلبابه.

- يا سلام ؛ أخيرًا عرفنا نجعلك تزور وكالتك يا حامد.

«وكالتك» قالها محمود بطبيعية وعلى سجيته فمست شغاف قلب حامد الذي كان قد وقف في انتظار جلوس أخيه الأكبر إلى مكتبه.

رد ضاحكًا:

- لا تقل وكالة كي لا تضايق كامل أفندي.. من باب الحداثة كما يحب اسمها المكتب.

بترتيب السن والمقام عاد حامد للجلوس إلى مقعده بعد أن استقر محمود في جلسته على مكتبه قبل أن يترك كامل فسحة من الوقت جر بعدها كرسي المكتب الصغير ليجلس، وهو ينظر تجاه أبيه مستأذنًا.

طال حديث المجاملات بين حامد وأخيه وكامل بينهما، فقرر الزائر أن يكتفي وينتقل إلى الموضوع الذي أصر أخوه الأكبر على أن يناقشه في محل عمله:

- خير إن شاء الله.. ما الموضوع الذي تريدني من أجله؟

أنهى حامد جملته بنظرة تجاه ابن أخيه في إشارة أو تذكير لأخيه إن كان حديثهما المزمع مشاعًا يستطيع الشاب أن يحضره. ولكن وضح من استقرار جلسة كامل وما تبع من حديث محمود أن ابن الأخير جزء أصيل في الحديث الذي سيدور:

- أرض القناطر يا حامد.. ظهر لها مشترٍ.

قطب وجه حامد.. وهو يستعلم:

- ومن عرضها للبيع أصلا؟

- لم يعرضها أحد، ولكن جارنا الباشا يريد ضمها لأرضه.

- أوَتظن أن أمك توافق على بيع ما تركه لنا الوالد.

في هدوء رد محمود:

- أمك ستبارك ما فيه مصلحتنا، ثم إن هذه الأرض باسمي أنا وأنت فقط.

سكت حامد ملتقطًا أنفاسه، محاولًا استيعاب ما يقوله أخوه الأكبر، قبل أن ينبس بأول خاطر جاءه:

- بع نصيبك يا محمود، أنا لا أرغب في البيع.

تغيرت قسمات محمود وزحف على تعبيراته غضب مكتوم لوّن صوته:

- العرض على الأرض كلها لا نصفها يا حامد أفندي.

دون استئذان أو دعوة للتدخل وجد حامد كامل يوجه إليه الحديث:

- حضرتـك آخـر مـرة زرت أرض القناطـر كان مـن أكثـر مـن سنتين.

نظـر محمـود صوب ابنه وكأنه على وشـك أن يأمـره بالصمت، ولكن الأخير تجاهل نظرة والده.. واستطرد:

- السـعر المعروض يـا عمي ممتاز وبصراحـة وبعد عمر طويل ومديد لكما إن شـاء الله، سـأظل أنا أتابعها، وللحق ليس لديّ حب أو رغبة في موضوع الزراعة.

صادمـة كانت العبارات التي نطق بهـا كامل، فران الصمت على الجلسـة، وكأن محمـود وحامـد اجتـرا على مضض مـا قاله كامل.
تساءل حامد في شبه استسلام:

- لا توجد قيمة مثل قيمة الأطيان.. ثم ماذا سنفعل بثمنها؟

- سنضارب في البورصة يا عمي.

- خطـر يـا كامـل.. الدخـول فـي البورصة فـي الوقـت الحالي مخاطـرة كبيـرة.. هـذا صميم عملـي.. لا تخُـض هـذه المغامرة يا ابني.

تعجـب حامد من تشـابه كامل ومحمود وكيـف ورث الابن عن أبيه كل ما به من صلف وفرض سطوة وحب سيطرة وتشبث بالرأي

دون وزن أو تثمين أي اعتبارات أخرى. لم يذكرة كامل بمحمود في شبابه، بل عزز فقط منواله الذي شاب عليه إذ لم يتغير أخوه قيد أنملة عن عناده الذي شب عليه

قطع الصمت اللحظي صوت محمود الرخيم منهيًا الحديث بما يشبه الفرمان.. وقائلًا:

- ما سنفعله بالثمن ليس موضوعنا الآن يا حامد. أمامك أسبوع تفكر وتعطيني ردك، علما بأني نويت البيع.



7

- وما الفرق؟

كان هذا سؤال حلمي للسكري، وهو يستوضح منه الفارق بين جمعية الإخوان الحصافية التي يترأسها وبين الإخوان المسلمين، التي أنشأها البنا ودعاه السكري للانضمام إليها.

لم يستفض أحمد السكري في الشرح وإن أوضح لحلمي أن الإخوان المسلمين غرضها أعم وأشمل، ويريدون بها أن تتخطى مجرد الارتباط بجماعة صوفية في مسعاها، وإنما يريدون أن تشمل الحركة عموم المسلمين، وأن تتجاوز الفرق وأن تمد الجسور بين السلفية والصوفية. أشار إلى أنهم يريدون محاربة المنكرات ودفع المنافع والنهوض بالأمة وإعادة بعث الشعور الديني وتقويته لأن هذا أساس النهوض بالأمة على جذور قوية تستمدها من روحانيتها وصحيح الدين الإسلامي[2].

---

(2) هذه الفقرة التي تشرح غرض إنشاء الإخوان المسلمين منقولة من موقع ikhwanwiki الذي يعرف نفسه بالموسوعة التاريخية الرسمية للإخوان المسلمين.

لعل ما أثار حلمي، وجعله مستمسكًا بالفكرة ما رآه من اقتناع السكري بما يسرد إلى الحد الذي جعله يؤثر البنا بمكانة القيادة ويتركها له مكتفيًا بدور عضو، وهو مَن كان يرأسه في الإخوان الحصافية.

مقابلتان وحديثان فيهما بين حلمي والبنا كانا كافيين أن يبايع الأول الأخير، وأن يصبح عضوًا في الإخوان المسلمين، لقاء في المدرسة التي يتزاملان فيها كمدرسين، ومن بعده حضر درسًا للبنا مع غيره من المنضمين.

في شارع فاروق بالإسماعيلية في غرفة ضيقة واظب حلمي على حضور دروس التهذيب التي يلقيها البنا على إخوانه المسلمين. حدَّد قائد الإخوان منهَج التربية في هذه المدرسة، فكان تصحيح تلاوة القرآن وفق أحكام التجويد، وحفظ بعض سور من القرآن الكريم، وحفظ بعض الأحاديث وشرحها، وتصحيح العقائد والعبادات والتعرُّف على أسرار التشريع، ومعرفة آداب الإسلام العامة، ودراسة التاريخ الإسلامي وسيرة السلف الصالح بشكل مبسَّط يعمَد إلى النواحي العملية والروحية، مع التدريب على الخطابة والدعوة علميًّا وعمليًّا، بحفظ ما يمكن من النَّظْم والنَّثر، ثم الخطابة والمحاضرة والتدريس في هذا المحيط الصغير أولًا ثم في أوسع قمة.

ولـم يكتـفِ البنـا بالجانـب النظـري، بل بـدأ يأخذهـم معه في المقاهـي حتى يستأذنوا صاحب المقهى بغلـق ميكروفون الأغاني لمـدة خمس دقائق ويبدأ حديثه، كما كلـف أحدهم بحصر حالات الوفـاة بالبلـد، وبعد صلاة العشـاء يقومون بزيارة أهـل المتوفى في سـرادقات العزاء، وفي غير هذه الليالي يجلس معهم ويعلمهم إلقاء الكلمات في المناسبات المختلفة من التهاني والتعازي، ويشجعهم على مواجهة الجماهير، وكان يسـعَد كثيرًا حين يقوم أحدهم ويقدم واجب العزاء وهو جالس يستمع إليه.

تأثيـر حسـن البنا علـى حلمي كان عميـق الأثر برغـم أنهما كانا تقريبًـا في سـن واحدة. لم تكـن طريقة الإلقـاء، أو براعة الحديث، أو فصاحتـه المتميزة دون تعقيـد هي ما ملكت حلمي، ولكن غزارة العلم وقوة الحجة، والقدرة على الاسترسال في صحيح الدين دون توقـف. رأى فيـه نموذجًـا يحتذى فـي الإصرار علـى الحق ونصرة الديـن والسـعي فـي الخير والمعـروف، وفي الإشـارة إلـى المنكر ووصفه على ما هو دون تورية في زمن اختلط فيه الصحيح والسـيئ في أذهان الناس.

كان إذا بـدأ الـكلام يجـذب مريديـه حتـى لا يشـعروا بالوقـت ولا بالمكان الذي هم فيه وهم يتذوقون حلو حديثه ويسـره، والذي كان دومًا خاليًا من التعقيد. لم يجدوا غضاضة في أنهم في مدرسـة

التهذيب، وقد بلغوا ما بلغوا من أعمارهم، بل رأوها فرصة ربانية اصطفوا لها فقدروها وصانوها وغالبوا أنفسهم أن يسيروا على درب المصلحين الذي كان البنا يدعوهم إليه. ذكاء وطاقة البنا كانا يستأثران بمن يستمع إليه فلا يجد مناصًا من الانجذاب إليه واستحسان ما يقول وإعلائه بدواخله.

كان يوم فخر عظيم لحلمي يوم كان في عزاء مع البنا، وأشار إليه أن يقوم هو بإلقاء كلمة العزاء. أحسن حلمي يومها في كلمته، فمس قلوب المعزين حين تحدث عن الآخرة وما ينتظر المحسنين، وأسهب في تذكرة الحاضرين أن يحسنوا أعمالهم الدنيوية ليفوزوا بثواب الآخرة، وأن اتباع صحيح الدين هو سبيلهم إلى ذلك. مكافأة حلمي الكبرى كانت حين عاد إلى مجلسه بجوار أستاذه الذي مال عليه، وهمس في أذنه باستحسانه لما قال وأثنى عليه.

لم يمضِ يومان على هذا الموقف إلا وكان السكري في زيارة إلى حلمي. بعدما أنهيا غداءهما، وصليا العصر سويًّا في الجامع، وهما فِي طريقهما إلى مدرسة التهذيب، فاتحه صديقه فيما آتاه:

- أما زلت تسعى في موضوع نقلك للمنيرة الابتدائية؟

- إن شاء الله يا أحمد.. والد زوجتي كلم ناسًا كثيرة ووعدوه أني أنتقل مع العام الدراسي الجديد.

- نريدك أن تعيد النظر في هذا الموضوع.

استغرب حلمي كلام السكري واستفسر عن السبب من صديقه.

- دعوتنا تحتاجنا الآن في الإسماعيلية.. سيجيء وقت القاهرة بعد حين.

- ولكني متفق مع صهري على ذلك منذ بداية زواجي.

- هذه رغبة الأستاذ البنا يا حلمي.

أحس السكري بتردد صديقه وعدم تمام اقتناعه بما يطلبه منه فأنهى موضوع حديثهما بقوله:

- ولا تنسَ أنك بايعت على السمع والطاعة.



8

يومان أو ثلاثة احتاجتها الآنسات عضوات البعثة المصرية للتغلب على دوار البحر الذي أصابهن منذ بدأت السفينة تمخر بهن. بدأن في الظهور على سطح السفينة دون أن تكون وجوههن شاحبة أو أن تجري إحداهن كل آن وآخر بحثًا عن مرحاض لتفرغ فيه ما احتوته معدتها.

تعرفن على بعضهن ومن بعد التعارف الأوليّ انقسمن إلى مجموعات أصغر، وكان بديهيًا أن تكون نوال ودرية مجموعة واحدة بحكم أنهما ذاهبتان سويًا دون الأخريات إلى باريس، وتحديدًا إلى جامعة السوربون. فقط انضمت إليهن من وقت إلى آخر رفيقة درية في قمرة السفينة، والتي بدت شديدة الانجذاب إلى رفقتها.

نوال أيضًا وجدت في درية شخصية جذابة وآسرة، أحبت حديثها، وأعجبت جدًا بطلاقة فرنسيتها. في الوقت ذاته أبهرتها ثقافتها وواسع اطلاعها حتى تاقت إلى أن تضاهيها حين تصل مثلها إلى سن العشرين بعد عامين. ذكاء درية وعيناها المتوقدتان

المملوءتـان بعـزم وإصرار على بلـوغ مقاصدها استحوذا وأحاطا بنـوال . أعجبهتـا أناقتها الملفتـة واهتمامها بمظهرهـا الذي تنافس فـي ذهنها مع نبوغ درية الواضح وشـخصيتها المتفـردة بين كل مَن رافقوها رحلتها شمالًا

مـا جمع أكثر بين البنتين هو أن قصتيهما كادتا تتطابقان؛ الاثنتان فقدتا أمهما، وإن فقدت درية أمها وهي في الثانية عشرة، فمن ناحية تمتعت بأمها، ومن ناحية أخرى ذاقت وأدركت أحاسـيس الفقدان، في الوقت الذي اكتوت نوال من أحاسـيس الحرمان. البنتان أكملتا تعليمهما في مدارس فرنسـية: المير دي ديو في القاهرة، والنوتردام ديز أبوتر في طنطا. والدا الاثنتين هما من دفعهما للسـفر وجداتهما هـن مَن عارضتاه، وإن كانت درية اسـتودعت جدتها قبل أن تسـافر رغم غضاضتها، أما نوال فاضطرت إلى أن تسـافر خلسـة دون وداع مناسب لمن ربتها.

أصبـح لنـوال ركـن مختار مـن ظهر الباخـرة تجلس فيـه وتفتح كراس رسـمها، وتخط فيه كل يوم رسـمًا جديدًا بقلمها الرصاص، وتسـاعدها شمس المتوسـط على إتقان الظلال، حتى غدا كثير من الـركاب يتلصصون من خلفهـا ليمتعوا أنظارهـم بلوحاتها الرائعة، والتي تجدد موضوعها كل يوم.

فـي الوقـت الذي كانت نـوال تتمتع بالرسـم، كانت دريـة دائمًا تسـتند على سـور المركب والناظر إليها يظنها شـاردة، والحقيقة أن

الفتاة الحالمة كانت في ملكوت أشـعارها، وكانت تقرأ بعضها على نـوال، التي لم تسـتطع يومًـا أن تخفي انبهارها مـن موهبة صديقتها الجديـدة وإتقانهـا وتمكنها من اللغة الفرنسـية حتى تفوقت في ظن نوال على أبناء اللغة أنفسهم:

الشاعر مثله مثل أمير السحاب.

يسكن العاصفة ساخرًا من رامٍ وما رماه.

منفي في الأرض وسط سخرية الأتراب.

أجنحته العملاقة تعيق خطاه.

«درية شفيق».

فـي ذلك اليـوم انزوت نـوال في ركنهـا بزاوية تعمـدت فيها ألا يسـتطيع أحـد أن يرى ما ترسـم وإن حاولوا. انهمكت في رسـمتها وكانت ترنو بوجهها بين الفينة والأخرى صوب زميلاتها من البنات حيـث وقفن وتجمعـن وتناثرن على سـطح السـفينة. تنظـر وكأنها تبحـث عـن درية، ثم ما تلبـث أن تعمل يدها الممسـكة بالقلم على ورقة كراسـها وهي في غاية التركيز قبل أن ترفع رأسـها مستطلعة ما حولها.

بعـد الظهر بقليل بدا أنها انتهـت من لوحتها حين وضعت قلمها جانبًا، وأمسـكت بكراسـها وأبعدته عنها طول يدها، وهي تنظر إلى

المرسـوم، وتغير زوايـا نظرها إليه راغبة في التأكـد من بَراعتها فيما اختارت أن تصور.

وما إن انتهت من فحص رسمها حتى نادت بأعلى صوتها:

- درية.

نظـرت درية صـوب صديقتها التي تناديها ومـا لبثت أن اتجهت إليها بخطواتها الثابتة وقوامها الممشـوق؛ مشية مملوءة ثقة ومفعمة بطاقة تتخطى صاحبتها فتملأ الأثير الذي يحيط بها.

- يا ربي!

هكذا صرخت درية بالفرنسـية وهي تـرى البورتريه الرائع الذي رسمته نوال لها. لم تستطع إلا أن تحتضنها من فرط فرحتها بالرسم، وهي تقول لها:

- موهبتك غير عادية يا نوال.

أحدثـت الفتاتان جلبة بضحكهمـا وصراخهما، وهما تحتضنان بعضهما بعضًا، وتعلقان على الرسم في حماسة حتى تجمع حولهما باقي زميلاتهن ليثنين جميعًا على موهبة نوال، قبل أن ينفض الجمع من جديد تاركين الرسامة وموضوع رسمها.

فوجئت البنتان بصوت يأتي من خلفهما:

- الرسم البديع شراكة بين الفنان وملهمه..

نظرتـا جهة الصوت فوجدتا شـابًّا يكبرهما بأعـوام قليلة هو مَن يوجـه إليهما الحديث. كانت نوال قد لاحظته من قبل أكثر من مرة، وهو إما يتريض على سطح السفينة أو يقبع مستغرقًا في قراءة كتاب. لفتـت نظرهـا هيئتـه المصرية ومعهـا القبعـة الأوربية التي يلبـسـها، واستغربت إن كان مصريًّا لِمَ لا يلبس طربوشًا كبني وطنه؟

قطع هو صمت الفتاتين اللتين ما زالتا محدقتين فيه:

- آسـف لتطفلي.. أنا مختار صفوت، موظف في بعثة الحكومة المصرية بباريس.

في هدوء وثقة وفرنسية ردت درية:

- تشرفنا مسيو مختار.

أما نوال فظلـت على حالها؛ في حالة ذهول وتلعثم قبل أن تقرر تقليـد صديقتها، فصدر منها صوت واهن وكلمـات متكررة وكأنها ببغاء يقلد درية:

- تشرفنا مسيو مختار.

بأدب جم جاءهما الرد وبلهجة باريسية:

- الشرف لي يا آنساتي.

ثم استطرد بالفرنسية أيضًا قائلًا:

- على ما فهمت، فالمادموزيلات الكريمات سيدرسن في السوربون، وأنا تحت أمركما إن احتجتما أي شيء.. تستطيعان الاتصال بي في أي وقت أردتما.

قبل أن تنبس درية بكلمة كانت دورية حراسة المسز ماكدوال قد استشعرت وجود مخالفة تُرتكب، حين رأت اثنتين من بناتها تقفان مع هذا الشاب مليح الوجه ذي التقاطيع الشرقية الوسيمة والشعر الأوربي الناعم الذي كحل بدكانته بياض وجهه، وكأنه نتاج تزاوج الغرب والشرق. وكأنها تهب لتطفئ حريقًا، اندفعت مشرفة الرحلة صوب نوال ودرية، وفي طريقها إليهما أزاحت عن عمد بخبطة من كتفها السيد مختار صفوت، الدبلوماسي المصري الشاب الذي تفادى بمشقة أن يقع من إثر لكزة الأسكتلندية التي حاولت أن يبدو الأمر غير متعمد.

ما إن وصلت إلى البنتين حتى صدر فرمان المسز ماكدوال إلى كل من تشرف عليهن:

- إلى كبائنكن جميعًا الآن!! لا خروج حتى العشاء.

9

فتح محمود باب شقة أمه ودخل تاركًا الباب مفتوحًا وراءه. بعد أن قطع مسافة داخل البيت تمهل في خطوته ناظرًا خلفه مناديًا:

- ادخل يا حامد.

بخطوات مترددة ورأس نصف منكس تبعه حامد إلى الداخل، وهو يحاول أن يرى ردة فعل رؤيته على وجه أمه. استقبلت الأم ابنها البكري ببرود ثم أشاحت وجهها جانبًا، وصغيرها يقترب من حيث جلست. لم يجد حامد بدًّا من أن يتسمر مكانه فاقدًا القدرة على التفكير فيما يجب أن تكون حركته التالية.

تصنَّع الأخ الأكبر ضحكة أراد بها أن يفك جمود الموقف:

- يا نينة.. ألم تشتاقي إلى آخر العنقود؟

لم ترد أمهما وإن اغرورقت عيناها بالدموع حتى تنحنحت، وهي تمنعها من التسلل إلى وجنتيها. حاول محمود مرة أخرى فدعا أخاه الأصغر:

- قبِّل رأس أمك يا حامد وصالحها.

بسرعة تقدم حامد من أمه وقبل رأسها، وتبع ذلك بأن دفس رأسه في حضنها، وهو ينتحب بصوت خفيض. دموع الأم انسابت غالبًا متى لمسها ابنها الذي كان قلبها غاضبًا منه منذ عرفت بسفر نوال ضد رغبتها ورغم معارضتها الضروس لذلك.

رفعت الأم رأسها وهي تمسح دموعها بطرف طرحتها:

- أنا لي في نوال مثل حامد بالضبط إن لم يزد.. أنا مَن ربيتها وتعبت فيها.

تلعثمت الكلمات على لسان حامد قبل أن يستجمع شتات نفسه:

- سامحيني وإن شاء الله الأيام تثبت لكِ أني كان عندي حق.. لا أنا ولا نوال لنا بركة سواكِ.

استرسلت الأم في عتابها وإن ظهرت نيتها في التسامح والعفو عما مضى، فتركها ولداها تسترسل في شكواها دون مقاطعة لتبوح بما جثم على صدرها من جراء عصيان حامد وحفيدتها لرغبتها وتحديهما لمعارضتها رحيل الصغيرة. استمرت الجدة في سرد تفاصيل جرحها حتى تهادت كلماتها، وكأن نبع الغضب نضب فحل صمت على الثلاثة في جلستهم. لحظات من صمت ثقيلة في مرورها ما لبث حامد أن قطعها بأن قبَّل يد أمه واحتضنها مكررًا طلبه بالسماح.

أخذت الجلسة منحى آخر بعد انتهاء العتاب وقبول الاعتذار إذ فاجأت الجدة ابنها الأصغر بوابل من الأسئلة تطمئن من خلالها على حفيدتها. سألته إن كان تأكد أنها سافرت بملابس تحميها من برد أوربا، ثم أخذت تدقق في معرفة تفاصيل معاشها في فرنسا: أين تسكن وكيف ستأكل ومن سيوصلها إلى الجامعة وهل معها مصريات أخريات ؟ أجاب حامد بما يعرف من ردود على أسئلتها وتحاشى أن يكون لها سؤال بلا رد فابتدع ردودًا للأسئلة التي لم يكن على يقين من إجاباتها، وهو يستعجب من كم التفاصيل التي لم يفكر فيها وهو يعد ابنته لبعثتها.

استمر الحوار هادئًا مملوءًا بالعواطف بين الأم وابنيها اللذين كانا يعانيان من القطيعة التي فرضتها الظروف عليهما، إضافة إلى أن نوال قد أوحشتهما. تركهما محمود ينعمان بصلحهما برهة قبل أن يقطع حديث الود:

- هيا بنا يا حامد كي لا نتأخر عن مشوارنا.

غادر الأخوان أمهما وتذكر حامد، وهما يخرجان من العمارة، أن ينبه على إدريس بواب العمارة:

- لا تنسَ ميعادنا يا إدريس.

- تمام يا حامد أفندي.

كان عم سمعان بحنطوره في انتظار محمود وحامد، ولكن ما كاد الأخ الأكبر يضع يده متكئًا على المسند ليصعد إلى العربة حتى سمع ابنه يناديه. نظر من حيث أتى صوت كامل ليجده جالسًا بجوار ليڤون في سيارة خاله السيتروين وقد أنزلا سقفها الجلدي. ترجل كامل وهو يفتح الباب لأبيه وعمه ليجلسا خلفه هو وصديقه، وهو يقول ضاحكًا:

- معقولة تريدون الذهاب لمقابلة الباشا في حنطور.

ما إن استقر الأخوان على مقعد السيارة الخلفي، وبدأت في التحرك حتى مال محمود على أخيه وهمس في أذنه:

- هأناذا صالحتك على نينة كما وعدت، دورك تنفذ كلمتك.

قطعت السيارة شارع المبتديان وبعد عدة دورانات وتقاطعات وصل الجمع إلى شارع بورسعيد الذي قطعه ليڤون سريعًا بقيادة بارعة قبل أن يتوقف بهم أمام محكمة باب الخلق.

توجها فور دخولهما إلى قلم التوثيق بالمحكمة فوجدا علي باشا السركي ومحاميه في انتظارهما في مكتب رئيس المحكمة. جلسا إلى جوار الباشا يتبادلان أطراف الحديث، في حين بدأ المحامي، ومن خلفه كامل يتحركان ما بين المكاتب والموظفين لينهيا الإجراءات. لم تمر نصف ساعة إلا وكان عقد بيع أرض القناطر للسركي باشا

قد انتهى توثيقه، وأقر كل من الأخوين باستلامهما كامل ثمن البيع، والـذي كان في حقيبتين أنيقتين أعطاهما الباشـا لكليهما. قام كامل في شـبه خلسة وعلى استحياء بعد المبلغ الموجود بحقيبة والده ثم هز رأسـه، في حيـن اكتفى عمه المتجهم باسـتلام حقيبته دون حتى عناء فتحها.

انصرف الباشـا في سـيارته الأنيقة ووقف آل عارف يسـتودعونه وهو يغادر، قبل أن يتقدم ليڤون بسيارته ليقلهم، فركب كامل وأبوه، وتوقف حامد دون أن يركب:

- تفضلوا أنتم.. أنا عندي مشوار قريب من هنا.

رد عليه أخوه:

- تمشي بالأموال هكذا؟ أتريد أن تتركها معي؟

رد عليه حامد بشبه ابتسامة:

- لا تخف سأحرص عليها.

تحركـت السـيارة بهم فاسـتدار حامد وعـاد أدراجـه إلى داخل المحكمة.



10

ما إن دخل ليڤون بالسيارة من شارع المغربي إلى ميدان سوارس حتى لمح سيارة تخرج من مركنها فأسرع بأخذه. ترجل محمود وكامل وليڤون ليجدوا خال الأخير مقدمًا عليهم يحييهم، وهو يقودهم تجاه إحدى عمارات الميدان الناطقة أبهة. سرعان ما كان الجميع جلوسًا في صالة انتظار المكتب الفخم ليعقوب ميشه، أحد أشهر سماسرة البورصة بالقاهرة، في انتظار مقابلته.

خرج اليهودي بنفسه مرحبًا فقدم له خال ليڤون ضيوفه فحياهم ثم أمسك يد محمود بحميمية، وهو يقوده إلى داخل مكتبه، وكأنهما معارف منذ سنين وصديقا عمر فرقتهما الأيام.

بعد أن أنهوا أكواب القهوة نظر الخواجة ميشه إلى محمود وسأله:

- أوامرك يا محمود بك.

ارتبك وهو يسمع اسمه مقترنًا بالبكوية، فتلعثم قبل أن يرد على مضيفه:

- نريد أن نشتري أسهمًا في البورصة يا خواجة.. سمعنا أن المكاسب ممتازة والخير على يديك إن شاء الله.

بدأ الخواجة يعقوب في شرح بعض تفاصيل عالم البورصة؛ بأن عرفهم بطول باع عائلة ميشه في هذا المجال وأن والده وأعمامه وأبناءهم جميعًا من سماسرة بورصة الإسكندرية منذ بدأت، وأنه انتقل للقاهرة ليبدأ فرعًا لتعاملات العائلة وزبائنها من راغبي التعامل مع بورصة القاهرة. استفاض الرجل في كم المكاسب التي حققها لعملائه في الفترة الماضية، واستشهد عدة مرات بخال ليڤون، وهو أحد زبائنه، والذي كان يؤكد براعة يعقوب، وكيف جنى أرباحًا من وراء براعته في اختيار الأسهم وتوقيتاته الممتازة سواء في شرائها أو بيعها، أو كما أسهب الخواجة ميشه وقت الخلاص منها. انبهر محمود بأحجام المكاسب التي حكى عنها السمسار، وبالذات حين شرح له الأخير مدد تحقيق هذه المكاسب.

- معي مبلغ نبدأ به يا خواجة ثم نزيده إن شاء الله.

- في أسهم معينة تحب نشتريها يا محمود بك؟

لم يعد يرتبك واسمه يقترن بالبكوية، بل أصبحت موسيقى ارتباط اسمه باللقب شيئًا معتادًا:

- لا يُفتى ومالك في المدينة يا خواجة، سنتبع ما تراه.

- إذًا نشتري أسهمًا في شركة وادي كوم أمبو وشركة مساهمة البحيرة.

- على بركة الله..

قالها محمود والابتسامة تضيء وجهه، ثم أومأ لكامل ابنهِ الذي قام حاملًا الحقيبة المملوءة بثمن بيع أرض القناطر، فتوجه إلى محاسب الخواجة ليسلمه له مستبدلًا إياها وما بها بإيصال استلام مختوم بالمبلغ.

لم يلبث حامد أكثر من نصف ساعة أخرى بداخل محكمة باب الخلق قبل أن يخرج منها دون الحقيبة التي دخلها بها، والتي دفعها ثمنًا لما قام بشرائه وتوثيقه باسم نوال ابنته مع احتفاظه لنفسه بحق الانتفاع به طيلة حياته. توقف على الرصيف أمام المحكمة يحاول إيقاف حنطور ليقله إلى مشواره التالي وسرعان ما وجد مراده:

- شارع محمد سعيد يا أسطى.. من ناحية شارع الفلكي.

حين دلف الحنطور من شارع الفلكي يسارًا إلى شارع محمد سعيد لمح حامد عم إدريس بواب عمارة المبتديان واقفًا أمام العنوان الذي أعطاه إياه، وبجواره وقف بلدياته في جلباب أبيض ناصع ووجهه الأسمر يلمع من العرق الذي بلَّله من أثر الشمس والحر الشديدين.

- يا إدريس.

أسرع إليه الرجلان وقدم له إدريس مَن معه:

- بشير ابن عمي يا حامد أفندي..

مد حامد يده ليسلم على الرجل الذي التقط يده وهزها بحرارة وترحاب:

- أنا اشتريت هذه العمارة يا بشير وأريدك بوابًا لها وتتولى أمورها.. أنت من طرف إدريس فأنا مستأمنك تمامًا.

صاح إدريس:

- مبروك عليك يا حامد أفندي.. ربنا يزيدك.

وتبعه بشير قائلًا:

- مبروك عليك يا حامد أفندي.. وأنا تحت أمرك..

- إن شاء الله معرفة خير وتدوم يا بشير.. أُجرتك كما اتفقت مع إدريس ستكون ثلاثة جنيهات.. أنت مسئول عن كل حاجة بالعمارة بما فيها جمع الأجرة كل شهر.

بعد أن اتفقا على مهمات بشير وتفاصيلها شدد عليه حامد أهمية حفاظه على نظافة البناية وأن يكثر من غسيل السلم وألا يسمح بأي مخالفات من السكان وأن يبلغه عن أي مشاكل قد تظهر.

بعد ذلك أخذ حامد بشيرًا وصعدا سلم العمارة يطرقان باب شقة تلو الأخرى ليقدما أنفسهما بفخر كمالك العمارة وبوابها الجديدين لساكني أدوارها الأربعة وشققها العشر.

قبل أن يغادر حامد أعطى لبشير ورقة بها رقم حساب باسم نوال حامد عارف بالبنك الأهلي المصري وأفهمه أن يقوم بإيداع ما يحصله من أجرة العمارة شهريًا بهذا الحساب ثم قفز ومعه إدريس في الحنطور، متوجهين إلى شارع المبتديان. حين وصلا إلى البيت وقبل أن يصعد السلم التفت حامد إلى إدريس، وهو يدس في يده جنيهًا كاملًا:

- لا أريد أن يعرف أحد شيئًا عن عمارة محمد سعيد يا إدريس.



11

الحاج لم يعد مجرد لقب تبجيل يسبق اسم عبد العليم الأهواني منذ ارتحل إلى الحجاز قبل عامين وأسقط الفريضة وقام بزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام قبل أن يعود أدراجه إلى المحروسة، وتحديدًا مدينة الإسماعيلية التي يحتل فيها صدارة أعيانها. في الحي العربي عند التقاء شارع الثلاثيني مع ميدان عباس تقع وكالته لتجارة الحبال ومستلزمات المراكب، وأهم عملائها طبعًا هو شركة القنال.

حلمي هو أصغر أبنائه الأربعة والوحيد الذي أكمل تعليمه حتى حصل على الدبلوم والوحيد الذي لم ينضم للعمل في وكالة الأهواني لمستلزمات المراكب. ربَّاه أبوه كما ربى إخوته على الالتزام والتدين، فكانت العائلة موضع احترام الإسماعيلية ونظر إليها كل مَن يعرفهم نظرة تبجيل وتقدير خاصة أن الحاج عبد العليم اشتهر بفعل الخير والسعي فيه، كما أنه تولى إعانة كثير من الفقراء، فكان يجزل عطاءهم، وهو مؤمن دائمًا أن هذا ضريبة ما وسعه الله له في رزقه.

كان الحاج قد وصل لتوه إلى الوكالة ممسكًا منشته في يد وسبحته في الأخرى، وهو يجلس يحتسي أول أكواب الشاي حين مرَّ به حلمي كعادته كل أربعاء قبل أن يرتحل إلى القاهرة.

علا صوت الحاج عبد العليم مناديًا على الساعي:

- شاي للأستاذ حلمي.

دبلوم حلمي، وبالتالي أستاذيته، كانا من مصادر فخر الأهواني. جلس حلمي بجانب أبيه، وبدأ يتجاذب معه أطراف الحديث ولو بنوع من التثاقل، وظهر ذلك جليًا لوالده فما لبث أن سأله مبتسمًا:

- ما يشغل بالك يا سعادة الخوجة؟

استغرب حلمي أن يكون واضحًا عليه إلى هذا الحد أن شيئًا يشغله؛ فبالفعل كان ذهنه مشغولًا بتعليمات تأجيل نقله التي أتته. لم يكن يريد أن يعزو قراره إلى السبب الحقيقي تخوفًا من عدم تفهم مغزى انضمامه للجماعة، ولا ما لم يكن هو نفسه يعرف ما سيفعل ببقائه، ولكنه أصر على احترام بيعته وقسمه. بعد تفكير قرر حلمي أن يصلرح أباه ولو بالحقيقة مبتورة:

- أبدًا يا حاج نويت أؤجل موضوع النقل لمصر.

- وزوجتك وافقت؟

- سأبلغ عمي محمود اليوم.

- ولكنك يا ابني عاطي كلمة لأصهارك بهذا الخصوص منذ تقدمت لهم.

سكون تبع جملة الأب الأخيرة وهي تلخص حبه لاتباع الأصول والذي غرسه في أولاده وهو يربيهم حتى صاروا رجالًا.

- ثم يا حلمي قد لا تحب بهيجة عيشة الإسماعيلية.

- أنا لا أنوي أن أنقلها لهنا يا حاج.

فاجأت إجابة حلمي غير المتوقعة والده:

- ستعيشون كل واحد في ناحية؟

- محتاج أستمر في الإسماعيلية بعض الوقت يا حاج.. سنة أخرى ثم أنتقل إن شاء الله.

تلعثم حلمي وهو يمضغ كلماته التالية التي حملت ما جاء يطلبه من أبيه هذا الصباح:

- بعد إذنك يا حاج سأبلغ حماي أنك محتاج لي في الشغل لفترة.

نظرة غضب قاسية تملكت عيني الحاج عبد العليم الذي سكت برهة قبل أن يتمتم في نوع من الحسرة:

- سنكذب يا حلمي؟!

لم يعطِ حلمي تفسيرًا لأبيه فأخذ يراوغ ويتحدث عن احتياجه للبقاء في الإسماعيلية فترة من الوقت لمزيد من التمرس في مهنته قبل الانتقال إلى العاصمة، وأنه لا استعجال للانتقال إلى القاهرة وأن الفرصة لو بالواسطة ستظل بانتظاره. مسببات ومصوغات لم تقنع أباه ولا أزالت استياءه من نية ابنه ألا يلتزم باتفاقه مع صهره واستعداده للكذب في طريقه للحنث بوعده. حين استأذن حلمي من والده ليلحق قطاره لم يكن قد أقنعه ولم يُعد على مسمعه أنه سيتحجج باحتياجه له ليتنصل من كلمته مع زوجته وأبيها.

حين وصل حلمي بعد عدة ساعات إلى شارع المبتديان، وأخرج مفتاح شقته ليدخل، سمع أصواتًا نسائية وضحكات من خلف الباب فتنحنح وهو يفتح منذرًا المتواجدات بحضوره. حين دخل وجد بهيجة وجدَّتها ومعهن سيدة أخرى أسرعت تلفح رأسها بطرحتها التي كانت قد أسدلتها على كتفيها. حياهم حلمي ودخل من فوره صوب حجرة النوم قبل أن تناديه بهيجة في خفر:

- هذه حورية الداية.

التفت حلمي ليجد حورية والجدة وقد وقفتا متجهتين إلى باب البيت. لاحظت حورية توقفه ونظرته تجاهها فابتسمت قائلة:

- يتربى في عزك يا أستاذ.. بالراحة على بهيجة الفترة المقبلة.

بعد أن قام من قيلولته وجد بهيجة قد أعدت له الشاي ومعه القراقيش التي يحبها، ولكنه اعتذر لها وأسرع بارتداء ملابسه، مبلغًا إياها أنه يريد أن يلحق أباها قبل أن ينزل. وهو يغادر الشقة نظر إليها حانيًا، وهو يوصيها بألا ترهق نفسها، وأن تستعين في أعمال البيت بخادمة جدتها.

حين وصل إلى شقة أبيها وجده على وشك المغادرة إلى «قهوة المالية» في ميدان لاظوغلي حيث اعتاد الذهاب عصر كل يوم. استأذنه زوج ابنته في أن يرافقه في الحنطور حيث وجدها فرصة ليتحدث معه فيما أراد.

شرح حلمي لصهره اضطراره للمكوث في الإسماعيلية على الأقل عامًا آخر لمعاونة أبيه في أشغاله التي زادت وتحتاجه، بالذات أمور الحسابات التي تحتاج شخصًا متعلمًا مثله. تفهم الرجل مسببات زوج ابنته، وزاده أنه سيفتقد وجود بهيجة بجانبه لكن مكانها بجانب زوجها حيثما يكون. بخبث شديد ودهاء رد عليه حلمي:

- والله يا عمي أرى أنه لظروف حمل بهيجة أحسن تظل هنا بينكم.

فرحة محمود عارف ببشارة أنه سيصبح جدًّا لم يكن لها وصف.



12

السيد جيديدايا آدامز

قبطان الشيرو بشير

يتشرف بدعوة حضراتكم

إلى حفل عشاء راقص

وذلك في تمام الساعة الثامنة مساء

اليوم في قاعة الاحتفالات

استيقظت بنات البعثة المصرية لتجدن هذه الدعوة وقد وزعها طاقم السفينة من أسفل أبواب قمراتهن. عادة بحرية أن يقيم قبطان السفينة حفلًا راقصًا للركاب ليلة الرسو في ميناء الوصول. على مائدة الإفطار كان هذا هو موضوع الحديث بين البنات؛ قلائل أظهرن حماسهن، وأخريات تحفظن في إظهار رغبتهن في الحضور، بينما آثرت الباقيات الاستماع إلى زميلاتهن، وهن يناقشن موضوع الحفل دون أن يبدين رأيًا معينًا، وكأنهن رغبن السلامة مما اعتبرنه موضوعًا شائكًا.

لم يطل الحديث بهن كثيرًا وسرعان ما تحول إلى همس، وهن يسمعن جدال ماكدوال مع القبطان الجالس على منضدته يتناول إفطاره. الأسكتلندية كانت في حالة حنق، وهي تذكره بتعليماتها له ولطاقمه من أول الرحلة بأن أي تعامل أو تخاطب مع الآنسات المصريات يجب أن يكون من خلالها. حين رد عليها السيد آدامز أن هذا تقليد بحري وأن جميع الركاب مدعوون لحفل العشاء، استشاطت غضبًا، وهي تفهمه أن ما يبدو تقليدًا مقبولًا أوربيًّا غير مستساغ بالنسبة لأولئك البنات وأسرهن، وأن دورها هو المحافظة عليهن والتأكد من استمرار التزامهن بقيم المجتمع الذي أتين منه. استمر الجدال قليلًا قبل أن يعتذر القبطان، ويطلب تفهم المشرفة أنه لم يقصد بدعوته كسر السياج الذي أقامته حول بعثتها. حينها هدأت المسز ماكدوال بعض الشيء ثم بدأت في صوت خفيض تملي على الرجل المستسلم طلباتها من أجل إصلاح الخطأ الذي وقع فيه. استمر القبطان يستمع إلى شروط هدنة الأسكتلندية، وهو يومئ برأسه موافقًا، ويؤكد إذعانه لطلباتها في استكانة.

عندما انتهت ماكدوال منه التفتت صوب البنات، وفي خطوة عسكرية منتظمة اتجهت إلى حيث كانت عضوات البعثة جالسات لتعلنهن في صوت مارشالي:

- العشاء اليوم سيكون هنا في المطعم الساعة السابعة، وبعدها إلى حجراتكن في تمام الثامنة للنوم استعدادًا لرسونا في مارسيليا غدًا.

ومن بعد أن ألقت بيانها القصير بصرامة استدارت المسز ماكدوال وبخطوات جندي الجيش الإمبراطوري الثابتة توجهت صوب باب المطعم تاركة وراءها مجموعة فتيات فاغرات أفواههن.

أثناء النهار أوضحت درية لنوال عزمها على حضور الحفل برغم التعليمات، شارحة لها أنهن لسن صغيرات كي يتقبلن مثل هذه المعاملة، وأن ذهابهن ليس به خروج عن الآداب ولا تقويض لما تربين عليه، وأن تزمت ماكدوال لا معنى له. انضمت إلى خطة العصيان فتاة أخرى واتفق ثلاثتهن على تفاصيل تسللهن إلى قاعة الاحتفالات بعد العشاء، وأكدن على بعضهن ألا يشركن الأخريات مغبة أن يسربن نيتهن إلى المشرفة.

بعد العشاء صرفت ماكدوال الفتيات إلى حجراتهن. حين دخلت نوال حجرتها فتحت دولابها تتفحص ثيابها للمرة المائة في هذا اليوم وعينها على رفيقة حجرتها التي سرعان ما راحت في سبات عميق. كانت اختياراتها لملبسها في الحفل قد انحسرت بين خيارين. أمعنت النظر مرة أخيرة قبل أن تقرر أن ترتدي فستانًا زهريًّا من الحرير كمُّه قصير ويحليه حزام لونه وردي فاتح وطوله تحت

ركبتها بقليل، واختارت له حذاءً أسود اشترته من صيدناوي ستحطه وتلمس به الأرض لأول مرة هذه الليلة. ارتدت ملابسها، ونظرت في المرآة فاستحسنت شكلها، وهي تمشط شعرها الذي فردته جيدًا قبل أن تضع قبعة وردية بها ميل على جانب من وجهها أكثر من الجانب الآخر اتباعًا لأحدث الموضات الباريسية.

لم يمضِ وقت قليل إلا وسمعت صوت طرق على باب القمرة فأسرعت قافزة بكامل هندامها دون القبعة تحت غطاء السرير. كما توقعت لم تمر ثوانٍ إلا وكانت ماكدوال تفتح الباب لتتمم على نفاذ تعليماتها، فوجدت من بالقمرة مغمضتي الأعين في فراشيهما تغطان في نوم بدا عميقًا.

استمرت نوال ساكنة في سريرها حتى سمعت خطى ماكدوال تمر من أمام غرفتها في طريق عودتها، فقامت تستعد للخروج وتستعيد زينتها. وإمعانًا في الأمان بقيت مدة أخرى قبل أن تفتح باب القمرة وتبدأ في الخطو على أطراف أصابعها حتى وصلت إلى سلم الصعود إلى سطح الباخرة، حيث قاعة الاحتفالات الكبرى، فسارعت بارتداء حذائها. حين وصلت إلى القاعة كانت تتصبب عرقًا، وتسمع كل دقة من دقات قلبها المتسارعة أو بالأصح شديدة الاضطراب والالتياع. لم تجد بنفسها قوة ولا ثقة لتدخل إلى القاعة فكان أن انزوت إلى جانب المدخل تنظر من خلف الزجاج على من بداخل الحفل.

الفرقة الموسيقية بجاكتتاتهم البيضاء وبنطلوناتهم السوداء كانت تعزف ألحانًا يتراقص على نغماتها الركاب الأوربيون وبعض المصريين مع زوجاتهم المرتديات فساتين حريرية بألوان زاهية. لفت نظرها القبطان آدامز ببزته الرسمية، وهو يحمل قبعته تحت إبطه متنقلًا في زهو الطاووس بين المناضد يتجاذب أطراف حديث قصير بين كل مجموعة من الحضور. لمحت في آخر القاعة درية، وقد ارتدت فستانًا أحمر قانيا محلًّى بأساور وياقة سوداء، وتماهى مع ثوبها أحمر شفتيها في حين لملمت شعرها من الخلف ذيل حصان، وزينت رأسها بقبعة سوداء صغيرة.

- المشاهدة كثيرًا ما تكون أحلى من المشاركة.

ارتعدت نوال حين أتاها صوت قائلًا هذه الجملة فاستدارت، وهي نصف مرتعشة لتجد مختار صفوت ينظر إليها مبتسمًا. لم تجد ما ترد به إلا أن تنظر إليه صامتة، وهي تتصبب عرقًا. لاحظ مختار ارتباكها فأسرع قائلًا:

- آسف أني فاجأتك.

استمرت نوال مطبقة فمها كالخرساء، وهي تنظر إليه عاجزة عن أي رد؛ كل ما جال برأسها أن هذه قد تكون المرة الأولى في حياتها الذي يوجه لها رجل غريب حديثًا منفردًا.

- ألن تدخلي الحفلة؟

سؤاله كان مخرجها من محنتها فردت بصوت خفيض:

- لا.. سأرجع إلى كابينتي.. عن إذنك.

لم تنتظر نوال لتسمع له ردًّا وهي تمر مسرعة من جانبه في اتجاه مغادرتها للسطح. قبل أن تخرج من الباب المؤدي للسلم نظرت نظرة خاطفة خلفها فوجدت مختار وقد دخل القاعة وتهيأ لها أنه اتجه من فوره إلى حيث وقفت درية.

13

«ما جمعه الله لا يفرقه إنسان».

توقف كاهن كنيسة سان نيكولا عند نطقه هذه الجملة باليونانية، ثم نظر مليًّا نحو العريس قبل أن يترجمها إلى العربية ويعيدها على مسامعه توكيدًا أو لعله تحذيرًا: «ما جمعه الله لا يفرقه إنسان».

حين سمع كامل العبارة بالعربية سرت بداخله رعشة خفيفة فنظر بجانب عينيه إلى ديمتريا الواقفة خلف العروس إيلينا. ابتسم كامل لنفسه مذكرًا أنه مجرد إشبين ليڤون في هذا العرس السري، الذي اقتصر حضوره على أربعتهم والكاهن.

قصة ليڤون وإيلينا امتدت لأكثر من عامين، وها هي تتكلل بزفافهما في الكنيسة التي اختارتها العروس، وأصرت عليها دون غيرها.

أول لقاء كان في المستشفى الأهلي بالأزبكية؛ كانت إيلينا هي الممرضة المسئولة عن والدة ليڤون وقت علاجها من المرض الذي أصاب أحشاءها فأدخلها طبيبها مدة أسبوعين أو أكثر. في الظروف العادية لم يكن ليڤون ليعاود زيارة أمه أثناء مرضها إلا كل أسبوع إن

سمح وقته، ولكن سحر عيون إيلينا السوداء جعله زائرًا يوميًا رابضًا كالصياد بجوار سرير أمه في انتظار مرور ممرضتها عليها. إيلينا كانت تقاطيعها مشابهة لجداتها من آلهة الإغريق، بها حدة عند النهايات ولكن دون مبالغة: أنف مستقيم، ووجه رفيع تقاطيعه بارزة حادة تزينه عينان شديدتا الاستدارة، فوقهما حاجبان كثيفان لم يلمسهما ملقاط يومًا، وشفتان رفيعتان يبرز قرمزيتهما بياض بشرتها الناصع. أما سمة جمالها فكان شعرها الأسود الناعم النسدل والمسترسل حتى كتفيها خاطفًا أعين الناظر، صارفًا عن جسدها القصير النحيل أسهم النقد واتهامات شح الأنوثة.

الأرمنية العجوز كانت أول مَن لاحظ نظرات إبنها صوب إيلينا اليونانية فكان أن حذرته مع نظرة مملوءة وعيدًا:

- الأرمن يتزوج أرمنيه يا ليڤون.. لا تنسَ!

لم يجد التحذير شيئًا مع الفتى الذي ذاب عشقًا، أو لعله تحدى نفسه أن يقهر السور العالي الذي ضربته إيلينا حول قلبها فظلت تصد محاولاته المتكررة للفت انتباهها آملًا في أن يحظى بكلمة أو نظرة ذات إيحاء منها.

إيلينا لم تكن غافلة عن محاولات ليڤون، ولكنها لم تكن مستعدة لها وقد مرت بما مرت به منذ تركت الإسكندرية هي وأختها ديمتريا بعد وفاة والديهما. ليلًا واضطرارًا تركا مدينتهما المحبوبة بعد أن غرق الأسطى كوستا أشهر حلاقي الإبراهيمية وزوجته على متن

المركب الصغير الذي استقلاه من أثينا إلى سالونيكا لزيارة شيوخ وجدود العائلة على الجزيرة بعد أن انقطعا عنهم ثلاثين عامًا منذ استقرا بمصر. لم تدرك إيلينا وديمتريا أنه في سبيل تحقيق رغبة أمهما الحارة لزيارة أهلها استدان كوستا حتى يدبر مصاريف الرحلة. لم يرحمهما المرابي بعد وفاة والديهما، فظل يطاردهما برغم أنه وضع يده على صالون الحلاقة، ولكنه لم يكتفِ فأراد المنزل الذي تسكنان به، وفي أحيان أراد إحدى الفتاتين لنفسه فكان أن هربتا ذات ليلة تاركتين الإسكندرية كلها بما فيها من ذكريات جميلة لنشأتهما وكوابيس مطاردة مَن لا قلب له لهما وهما فتاتان يافعتان بعد أن غدوتا يتيمتان.

إصرار ليفون على مطاردتها وخفة دمه التي نضحت بها محاولاته بالإضافة إلى تقاطيعه الأقرب لوسامة الأوربيين مخلوطة بتشجيع ديمتريا جعلتا الممرضة حفيدة الإغريق - وهي الأكبر منه سنًّا بعدة سنوات - تلين، وفي النهاية تقبل دعوته للقاء خارج المستشفى الأهلي. من أول لقاء أدرك الأرمني واليونانية أنهما بدآ سطر علاقة عمر وأن ما سيجمعهما بالتأكيد ليس عابرًا. تعلق بها ليفون وشغفت هي به؛ لم يستطع الشاب أن يعاملها مثل من قبلها من علاقاته العابرة، فقد فرضت عليه احترامها بقصة كفاحها وبتماسكها ورجاحة عقلها ومعرفتها بما تريد وتقبل، وما لن تسمح به. لأول مرة في حياته يصرف ليفون النظر عما تعوَّد نيله من السريعات أو

السهلات اللواتي سبقن إيلينا. تكررت اللقاءات وتغلغل الشغف حتى فاض عشقهما وحبهما، فبقي أن يتفقا على الزواج الذي كان في ذهنيهما تتويجًا طبيعيا لمسار الغرام الذي جمعهما.

ولكن إتمام الزواج لم يكن ليأتي بسهولة، فأم ليڤون لم تمل تكرار جملتها الأثيرة:

- الأرمن يتزوج أرمن.

وفي أحيان أخرى ينضم إليها أبوه إدوارد في محاولات بائسة لإثنائه عن عزمه فيدخل من مداخل منطق الرجال:

- إيلينا أكبر منك حبيبي.

وتملك الأرمنية العجوز صلادة وعناد أهل جبل أرارات فرفضت حتى مناقشة احتمالية أن يتزوج بكرها من يونانية مهما بلغ شغفه بها. لم تجد الأم مسببات تعقلها لرغبة ابنها؛ كيف يترك بنات قومه اللوائي توافدن في السنوات السابقة بالمئات إلى مصر هربًا من مذابح مستمرة عانين منها في بلادهن على يد جيوش الأناضول. ثم ألم يتفق آباء الكنيسة على ضرورة المحافظة على العرق؛ فأنى لليڤون أن يخالف العرف والعقيدة؟ وحين استمر إصرار ابنها على اختيار قلبه طلبت من الأب هاكوب راعي الكنيسة أن يكلمه.

- يا ليڤون أمعقول أن تتزوج من كنيسة أخرى؟

- كلها كنائس يسوع يا أبونا.

فيرد القسيس محاولًا استنفار دماء ليڤون الأرمنية:

- ولكنها ليست أرمنية يا ليڤون.. بعد المذابح التي تعرض لها أهلنا لا بد وأن نقف معهم.. لما نخسر شبابنا لبنات أجنبيات فمن يتزوج بناتنا؟

لم يقنع الأب هاكوب ليڤون بمنطقه فكانت محاولة فاشلة مثل ما سبقها. حرب الكنائس لم يشعل سعيرها الأرمن فقط؛ إذ فوجئ ليڤون بإصرار إيلينا على أن تتم طقوس زفافهما في كنيسة الروم الأرثوذكس بشارع الحمزاوي، وفي سبيل تحقيق ذلك فاجأه أسقف كنيسة سان نيقولا بوجوب تغيير ملته وإعادة تعميده قبل الزفاف. لم يفلح مع الأب بولا منطق الأرمني الشاب بأن تعميده من جديد لا معنى له باعتبار أن الكنائس كلها ليسوع، فكان أن رضخ لكل طلبات كنيسة إيلينا ورجالها من اليونانيين. محاولة أخيرة حاولها مع إيلينا رغبة منه في عدم صدم أمه فطلب منها أن تشاور نفسها في أن يكون زفافهما في كنيسة الأرمن الكاثوليك من أجل ألا يكسر قلب أمه العجوز؛ دون أن يطلعها على أن أمه رافضة أصلًا زواجه إلا من أرمنية. جاءه رد إيلينا قبل أن ينهي رجاءه لها:

- لن أستطيع حرق قلوب أهلي في قبورهم.. كانوا سيصرون على زواجي في كنيستهم.

الحب والوله جعلا ليڤون يستجيب لكل طلبات حبيبته؛ نفس الطلبات التي جعلت زفافهما سريًّا به إشبين ووصيفة دون معازيم؛ وأسقف يقيم المراسم، وهو نصف راضٍ لأن إحدى بنات إبراشيته تتزوج من كاثوليكي أصلًا من الواضح أنه غيَّر ملته لا عن اقتناع ولكن تحت ضغط رغبته في عروسه. مراسم زفاف خالية من ابتسامات الأهل وتمنيات الأحباب وصخب وضجيج ورقص وغناء قبيلة العريس من الأرمن وأقارب العروس من أهل اليونان؛ زفاف ملأه فقط وله ليڤون وإيلينا ببعضهما!

بعد أن أوصلا العروسين إلى شقتهما الجديدة في شبرا أخذ كامل ديمتريا ليوصلها إلى الشقة التي أصبحت لها وحدها في شارع الخازندار بعد زواج إيلينا. طوال الطريق ظل يمتع نظره بجمالها وطلعتها التي كانت على النقيض من أختها فقد ورثت عن أمها شعرًا أشقر قصته قصيرًا على آخر الموضات فأظهر وجهها المستدير المحلى بعينين زرقاوين وشفتين ممتلئتين حمراوين يشتهيهما كل ناظر. وأما جسدها فكان على شاكلة نجمات السينما، خرطه خراط البنات لحد الاكتمال، ونفخ فيه أنوثة تستثير ذكورة من يراه. حين وصلا ودعته بدلال واستدارت في طريقها لمدخل العمارة، وهي متأكدة من أنه لم يستطع أن ينزل نظره عن جسدها الممشوق التي تتباهى به خطواتها المفعمة أنوثة.

14

الحياة في شقة بوليفارد سوشيه التي تشاركتها الفتيات الأربع مستمرة دون حدث وفي الرتابة المطلوبة أو بالأحرى تلك التي أملاها تغاير شخصياتهن. درية تقوقعت في الأغلب بحثًا عن خصوصية تمنتها ولم تجدها، ونوال وجدت نفسها جسرًا بين درية، والشقيقتين الصاخبتين توحيدة وعليّة وفرضهما رتمهما العالي على مجريات سكن الطالبات. الشقيقتان كبراهما تدرس الطبخ في الكوردون بلو، والأخرى تتعلم الحياكة والتطريز، فافترضتا أن في ذلك تأهيلهما لتصبحا صاحبتي الكلمة العليا في أمور المنزل الذي تشاركهما فيه درية ونوال، فاستتبع ذلك الصوت العالي وكثرة الأوامر والصخب حتى همست درية يومًا لنوال:

- نعيش في طنطا بمَطَل على غابة بولونيا.

يوم الأحد روتينه متكرر: توحيدة وعليّة تبدآن مبكرًا في تنظيف وترتيب الشقة الصغيرة، فما تلبث نوال أن تسمع صوت الباب يغلق وخطوات درية تغادر ولا تعود حتى المساء؛ ودائمًا يتبع خروجها تساؤل الشقيقتين:

- أين تذهب درية؟

تمد نوال يد المساعدة في التنظيف بعض الوقت ثم ما تلبث أن تغادر هي الأخرى بعد التصريح لزميلاتها بوجهتها مع وعد بلقائهن على الغداء الشهي الذي تتفنن توحيدة في إعداده لتجرب فيهن آخر ما تعلمته في الكوردون بلو، ثم تقضي بعض الوقت مع عالم رسوماتها التي ما زالت رصاصية دون تلوين. الأحد هو يوم التقاط الأنفاس لنوال من ضغوط الدراسة طوال الأسبوع، وهو اليوم الذي أصبح مقررًا أن تهيم فيه روحها حتى تحط بشقة شارع المبتديان، حيث مَن تحب، ومن أضناها وحشتهم في غربتها. أوحشها أباها وجدّتها وبهيجة والمبتديان والمير دي ديو ومصر كلها، وإن عادل ذلك انجذابها إلى باريس وفنونها وشوارعها وأناقتها البادية والمستمرة. أصبحت رسوماتها التي ما زالت بالرصاص دون تلوين خليطًا لمشاعر اغترابها ووحشتها وانعكاسًا لما يبهرها في مدينة النور.

هذا الأحد اختلف، فقد انسلت نوال سريعًا بعد مغادرة درية مغافلة زميلتا السكنى ودون أن تسر إليهما أين هي ذاهبة، وإن كانت ستشاركهما وجبة الغداء أم لا

جو باريس الخريفي لفح وجهها حين نزلت الشارع بمزيج من ريح خفيفة باردة ورذاذ مطر بارد جعلها تغير خطتها من المشي إلى

مقصدها فتسرع في النزول إلى محطة مترو رانيلج لتأخذ الخط رقم تسعة لمترو باريس.

نصف ساعة مضت قبل أن يتوقف القطار في محطة الجراند باليه فتنزل نوال مسرعة تخطف درجات السلم صعودًا، متوجهة إلى المبنى المنيف الذي يحتضن صالون الخريف الباريسي.

عند شباك التذاكر نقدت فتاته ثلاثة فرنكات ثمن تذكرة الدخول وزادتها فرنكين آخرين لتشتري مجلة «عرض ثانٍ» أكبر معرض فني تتفاخر به مدينة النور. حين خطت داخل الجراند باليه فاجأتها الجلبة التي لم تكن تتوقعها في معرض فني توسمت فيه جلال وسمو الحضور، ولكنها كأهل باريس الأصليين امتعضت من ضوضاء يسببها دون غيرهم السائحون الأمريكيون، الذين بدوا وكأنهم غزوا المدينة، ودانت لهم أمام دولار قوي جعلهم يسيطرون.

ما لبثت نوال أن استوقفها تجمهر الزوار حول قطعة معروضة فأخذت تنظر إليها لتجد مقعدًا ذا شكل غريب، أرجله الأربع معدنية فضية اللون، ومسنده على شكل نصف دائرة ومقعدته وسادة جلدية بنية اللون. في تيه شديد وقفت إلى جانب المقعد شابة فرنسية مليحة، تقاطيعها جذابة، شعرها قصير ناعم بفرق مثل الرجال على جانب رأسها الأيسر. أخرجت نوال كراس رسمها، وبدأت بقلمها

تنقل المشهد الذي أمامها؛ ليس الكرسي المعروض فقط، ولكن أيضًا الجمهور المتكالب، وصاحبة الكرسي بابتسامتها الجذابة.

استغرقت في تخطيطها حتى كسر استغراقها صوت يقول:

- لو رأت شارلوت رسمك ستزداد غرورًا.

وجلت نوال فنظرت لتجد شابًّا مرتبًا متأنقًا بجاكته الجلدي البني مبتسمًا، وكأنه مستمتع بما أثارت كلماته بها من حيرة:

- رسمك جميل جدًّا يا آنسة.. إن أذنتِ لي أن أعلق طبعًا.

- أشكرك.

قالتها نوال ثم استمرت في استكمال خطوطها، ولكن وضح أن الشاب لم يكن ليكتفي بكلمة واحدة معها:

- أنا كلود ديزري.. وأنتِ؟

- نوال عارف.

- سائحة في باريس؟ دعيني أخمن: إسبانية؟

- طالبة مصرية.

- من بلاد الفن والحضارة.. تشرفت يا آنسة نوال.. تدرسين الفن في مدرسة الفنون الجميلة أكيد..

- لا.. أدرس الجغرافية في السوربون.

لم تدرِ نوال لمَ ترد على أسئلته ولا سبب استرسالها في الحديث ولكن فيما يبدو أن ابتسامته المستمرة وصوته الجذاب قد جعلا هذا ممكنًا، وهي التي عادة تتلعثم في أي حديث مع رجال غرباء؛ ظنت أن هذا جزء من تبلور شخصيتها السوربونية فطفت على وجهها ابتسامة شجعت كلود على المضي في حديثه:

- جغرافية؟ كيف لموهوبة مثلك ألا تدرس الرسم في مدينة الفن؟

كلمة موهوبة جعلت نوال تحمر خفرًا فردت بصوت خفيض:

- وزارة المعارف المصرية اختارت تخصصي.

استمر الحديث بين الشابين دقائق وكلود منبهر برسمها ومستغرب أنها لا تدرس ما يصقل موهبتها التي أكد لها أنه يراها متفردة قبل أن يفاجئها:

- دعكِ من هذا الكرسي العجيب ومن شارلوت بيرياند وغرورها.. تعالي معي لأريكِ الفن الحقيقي.

مشدوهة ومتعجبة تبعته نوال، وهو يخطو سريعًا عبر صالات العرض، لا تدري لماذا تتبعه ولا حتى إن كان مقبولًا أن تتبع هذا الشاب الأجنبي، ولكنها استمرت تلاحق تسارع خطواته قبل أن يقف بها في صالة تكاد تكون خاوية أمام لوحة زاهية ألوانها، تفاصيلها شديدة الدقة.

- الطبيعة الصامتة!

لم تفهم نوال قصد كلود وهو يشير إلى اللوحة فعاد يشرح لها:

- اسم اللوحة الطبيعة الصامتة، رسمها بول سيزان.. سيزان يحب أن تنطق لوحاته بما يراه، وأن تعطي رسمته الانطباع اللازم دون شرح للناظر إليها.

انبهرت نوال برسم طبق الفاكهة وألوانه التي أبدع الرسام في نقلها إلى الصورة حتى تطابقت في تفاصيلها الأدق مع الطبيعة وتغلغلت بداخلها حالة إعجاب بمدى معرفة المتحدث إليها.

- الآن اتبعيني لأريكِ كيف رفض ماتيس مدرسة الانطباعية وأخذنا إلى مدرسة الوحشية.

مرة أخرى تحرك كلود ومن خلفه نوال ليقفا من جديد أمام لوحة أخرى؛ كان واضحًا أن كلود خبير فني إذ اختار لوحة الفاكهة وإبريق القهوة لهنري ماتيس ليشرح لنوال وجهة نظره:

- ها هو ماتيس يرسم فاكهة مثل سيزان، ولكن اهتمامه هنا بالألوان وشد النظر وليس التفاصيل مثل سابقه.. التفاصيل يستحضرها ذهنك حين تنظرين إلى إبداعه.. أليس كذلك؟

وكأنها فقدت النطق استمرت نوال في هز رأسها موافقة وتأمينًا على ما يقوله مرافقها الذي سرعان ما بدأ يتحرك صوب جانب آخر

من جوانب المعرض قبل أن يتوقف، وهي إلى جانبه أمام عمل فني آخر:

- ماذا تختارين اسمًا لهذه اللوحة؟

احتـارت نوال فأخذت تنظر إلى اللوحـة التي وجدتها مجموعة من الأشـكال الهندسـية المتداخلة بألـوان رماديـة وترابية مختلطة. حين طال صمتها قرر كلود أن يزيل حيرتها:

- هـذه من أعمال جورج بـراك.. أعماله هي آخر صيحات الفن ومدرسته اسـمها مدرسة التكعيب.. انظري مليًّا ستجدين في وسط الأشكال رسمًا لجيتار بأوتاره.. الجيتار هو اسم هذه اللوحة.

شـرح الخبير جعل رؤيـة الفتاة تتضح فرأت فعـلًا الجيتار الذي وصفه يتشـرئب من داخل اللوحة ويصبح واضحًا لها. تسلسل شرح كلود جعل نوال مشـدوهة بما تسـمع ونفسـها مرفرفة، وهي تتذوق ربما للمرة الأولى الفن كما يجب أن يكون.

- الثلاثة فنانون عظماء يا نوال، وعظمتهم أنهم يبعدون عن نقل الواقع والتخاطب مع الأعين.. الثلاثة يداعبون ويغازلون العقول.. لا يتباهـون بمواهبهم لإبهـار النظر، ولكنهـم كالمفكرين يخاطبون الوجدان ويدغدغون الخيال.

انبهـار نوال جعل صمتها مطبقًا؛ كم هـو جميل الفن وكم تحبه. الرحلـة التي أخذها فيها كلود جعلتها في أوج السـعادة، وهي تحبو

إلـى عالم لم تكن تدري وجوده، فالرسـم بالنسـبة لها لـم تظنه يومًا حامـلًا كل هـذه المعاني والأفـكار. انتقلت إلى عالـم حالم جميل مـلآن بالخيال، زاخر بالألـوان المبهرة والتشـكيلات التي لا تنفك تجعل النفس مرفرفة والمشاعر مرهفة. حالة الانتقال التي أصبحت فيها ارتبطت بإعجاب صامت بداخلها بمن أخذها في رحلة داعبت خيالها وأرهفت أحاسيسها.

تركها كلود تهضم مشـاعرها وأفكارها المتلاحقة لحين، قبل أن ينظر إلى عينيها بعمق مرة أخرى، قائلًا:

- أيامنا هذه أيام يعيد فيها فن الرسم اكتشاف نفسه.. نحن نعيش صياغة تاريخ يا نوال وباريس بوتقة هذه الصياغة.

هـز الـرأس بالموافقـة المملـوءة إعجابًا بمـا يقـول، كان كل ما استطاعته ؛ ولعل كلود أحس بهذا فأردف يقول:

- تعالـي معـي الآن نخـرج مـن هنـا لتـري بعينيكِ أين يتشـكل التاريخ.

قـال هـذا ومد يـده إليها فمـا كان إلا أن مـدت يدها تأخـذ يده، ويتحركان إلى باب الخروج من صالون خريف باريس.

15

اكتظت شقة شارع فاروق بأكثر من عشرين رجلًا ينتظرون درس شيخهم البنا، وسرت حالة من التململ بسبب ضيق المكان وصغره على عددهم. ما إن دخل عليهم البنا حتى عاجله أحدهم:

- يا أستاذ حسن نريد مكانًا أوسع يضمنا.

سكت إمامهم كثيرًا، وهو يستوعب المطلب ويفكر في الرد الأمثل ثم قال:

- أما المبدأ فجميل، ولكن التنفيذ يحتاج إلى شروط.

تطلع الجالسون إلى شيخهم في انتظار ما يراه من شروط تتوافق مع المطلب الذي أرادوه فلم يطل عليهم، وعاد قائلًا:

- أولها: إخلاص النية لله، ثم توطيد النفس على المشقة والصبر والمثابرة، ثم الكتمان ودوام النشاط.

وضح أن الشيخ قرر أن يكون مسعاهم جزءًا من تهذيبهم على مبادئ الجماعة؛ إذ أردف:

- ولتبدأوا بأنفسكم في البذل والتضحية، فإذا كنتم صادقين فيما تتحمسون له، فعلامة ذلك أن تكتتبوا فيما بينكم أولًا بخمسين جنيهًا توزع على الموجودين، ويدفع كل واحد منكم ما يخصه إلى الأخ سيد مسعود في ظرف أسبوع، ولا تذكروا ذلك لأحد، ولا تتحدثوا عنه حديثًا خاصًا أو عامًا، ثم لنجتمع بعد هذا الأسبوع في مثل هذه الليلة، فإذا كنتم قد أكملتم الاكتتاب، وحافظتم على الكتمان، فثقوا بأنَّ مشروعكم سيتم إنْ شاء الله.

إلقاء البنا الهادئ بصوته المميز لشروطه ألهب حماس دراويشه فجعلهم لا يركزون في درس ليلتهم تلك وكل منهم يجهد فكره في كيفية تحقيق الهدف الموضوع. حين غادروا الشقة تجمعوا مرة أخرى فيما بينهم كل يتعهد بما سيستطيع التبرع به من الخمسين جنيهًا المرصودة. كان حلمي شديد الحماسة فتطوع بخمسة جنيهات كاملة وعد أن تكون لدى سيد مسعود بعد صلاة عصر الغد.

مضى الأسبوع وعاد الجمع في الميعاد وهم جميعًا مستبشرون إذ إن سيد مسعود أخطرهم قبل اللقاء بأن شرط ورغبة الشيخ قد تحققا، وأن الخمسين جنيهًا جُمعت وزادت قليلًا. حين أخبروا البنا تورد وجهه فرحًا وأنبأهم:

- الآن يمكنكم أن تعلنوا نيتنا بناء مسجد وأن تجمعوا من أجل ذلك التبرعات من أهل الإسماعيلية.

بـدأ الإخوان في جمع التبرعات مـن معارفهم وكان حلمي أحد أنشـطهم إذ لـم يترك أحدًا من زملائه مدرسـي المدرسة الأميرية إلا وأشـركه، وكذلك أصدقاؤه الذين شـبوا معه في الإسماعيلية، حتى إخوته الثلاثة ساهموا حين طلب منهم.

استهلك حلمي كل معارفه تقريبًا ولكنه أبدًا لـم يقرب الحاج عبد العليم في طلب مسـاهمة. نوع مـن التوجس أصابه حيال والده وإن لـم يعرف سـببًا لذلك، فالطبيعـي أن يروق له التبرع لمسـعى الخير الذي يروج له حلمي وإخوانه.

فـي النهاية تغلـب حلمي علـى مخاوفه التي وجدهـا دون وازع ولا أسـاس فقـرر أن يفاتح الحـاج في أمر التبرع وهـو متأكد من أنه علـى علـم بالموضوع من إخوتـه. آل الأهواني كان لهـم لقاء يومي بعـد صلاة المغرب في الوكالـة يقضي الأبناء فيه الوقت مع والدهم حتـى وقت العشـاء، فيصلونها جماعة لينصـرف كل منهم بعد ذلك إلى بيته أو مشواره.

بعد شـرب أول أدوار الشـاي فاتح حلمي الحاج عبد العليم في طلبه:

- ألن تتبرع للمسجد يا حاج؟

نظرة ثاقبة سددها عبد العليم لولده وهو يستفسر:

- أي مسجد يا حلمي أفندي؟

لم يسبق لحلمي أن تحدث مع والده في موضوع الإخوان ولا انضمامه لهم، فبلع ريقه وضربات قلبه تتسارع قبل أن يرد:

- الجامع الذي نبنيه؟

- نبنيه.. من أنتم يا حلمي؟

رغم أنه لم يصارحه من قبل بموضوع انضمامه للأخوان، كان حلمي متأكدًا أن أباه على علم وأنه أيضا على دراية تامة بموضوع المسجد وبنشاط الإخوان إذ هو أحد أعيان الإسماعيلية التي لا تدب فيها دابة إلا وسمع بها. أدرك حلمي أن أباه لن يجعل الحديث يسيرًا:

- الإخوان المسلمين يا والدي.. جمعية الإخوان المسلمين.

- وأنت مالك وما لهم يا حلمي؟

- انضممت لهم يا حاج.

- غريبة أنك لم تقل لي من قبل.

وضح لحلمي أن بأبيه غصة وعتابًا من موضوع انضمامه للإخوان دون إخباره، فقرر أن يعيد الحديث إلى موضوعه الأصلي:

- إن شاء الله نجمع تبرعات كي نبني جامعًا، وأكيد حضرتك لن تحرمنا من كرمك ولا خيرك.

رد عبد العليم الأهواني بحزم:

- نفس الجامع الذي تبرع الحاج علي عبد الكريم بأرضه ثم سحبها؟

أسقط في يد حلمي لمعرفته بصداقة والده بعلي عبد الكريم ومقداره عنده فخفت صوته:

- أولاد الحرام دسوا عند الحاج علي أن الإخوان طابور خامس وأننا نأكل أموال الناس يا حاج.

- لا دخان من غير نار يا حلمي، والحاج علي رجل طيب ووطني جدًّا وكلمته واحدة ولا يمكن يرجع في كلامه إلا للشديد القوي.

نوع من اليأس تملك حلمي وهو يشعر بتحامل أبيه على الجماعة فأراد أن يخفف من وطأة الموقف:

- عمومًا الغرض هو بناء الجامع يا حاج وأنا أعرف حبك للخير.

اعتدل عبد العليم في جلسته ورشف رشفة أخيرة من كوب شايه قبل أن ينظر إلى حلمي مليًّا ليلقى بما لديه:

- اسمع يا حلمي؛ موضوع الإخوان أنا غير مرتاح له. وما أسمعه عن البنا غير مطمئن. وقصة مدرسة التهذيب أراها أصلا إهانة لأهاليكم أن يقرر أفندي مثله أنه ناقصكم أدب. عمومًا أنت

حر ولكن اسمع مني هذا: أنت طبعًا تعرف أني رجل وطني وأحب بلدي، وطوال عمري أحكي لك أنت وإخوتك على ثورة 19 وما عملت أيامها؛ وطبعا لن أكرر لك حكايات الشهداء الذين حملتهم على يدي في مظاهرات بورسعيد، ولن أذكرك بأني تقريبا أفلست أيام المفاوضات لما رفضت أتعامل مع شركة القنال حين أصدر الوفد للمصريين تعليمات بمقاطعة الإنجليز.

تملكت حلمي الحيرة من المنحى الذي أخذه حديث والده، فما علاقة فخر أبيه بوطنيته وكفاحه ضد الإنجليز بالتبرع للمسجد، ولكن لم تدم حيرته كثيرًا مع استطراد عبد العليم الأهواني في حديثه:

- حين تعرف عني كل هذا أكيد يا أستاذ لا تتجرأ وتطلب مني أن أتبرع لما يتبرع له الإنجليز. اذهب يا حلمي لحسن أفندي البنا واسأله لماذا أخذ من البارون دي بنوا خمسمائة جنيه وتحت أي بند؟ إلا طبعًا لو رئيس شركة القنال يبتغي وجه الله الكريم وينوي أن يصلي معكم كل جمعة.

16

خـرج كامل متبخـتـرًا من باب العمارة وهو يرتـدي بدلته الزرقاء الداكنـة وطربوشـه به شـيء من الميـل ليجد إدريس وقـد انتهى من غسـيل السـيارة الموريـس الجديدة. لـم يحتـج والده إلحاحًـا كثيرًا ليشـتري لكامل السـيارة التي طالما حلم بها خاصة ومكاسـبهم في البورصة مستمرة ومتدفقة.

الخميـس هـو يـوم التجمـع الأسـبوعي في شـقة ليڤـون وإيلينا بشـبرا، والموريـس سـتكون المفاجأة هـذه الليلة إذ لـم يخبر كامل صديقه باسـتلامها بعد. ولكن لم يك ليڤـون المُلح على ذهن كامل عارف بقـدر تخيله ركوب ديمتريا بجانبه بعد السـهرة وهو يوصلها إلـى منزلهـا كعادة كل أسـبوع. ليلـة الجمعة هذه سـتكون مختلفة؛ فلن يحتارا إن كانا سيتمشـيان أم يوقفان سيارة أجرة؛ ستركب الفتاة اليونانية إلى جانبه في سيارته الجديدة ليبهرها بثرائه وإمكانياته.

منـذ زواج ليڤـون وإيلينـا وتكـرار لقاءاتهـم بمنـزل العروسـين وإعجاب كامل يزداد يوما تلو الآخر بالجميلة ديمتريا. إعجاب خرقه صمته من خلال عينيه اللتين لا تكلان النظر إليها طوال تواجدها في

محيطه. أصبحت تملك فكره طوال اليوم، ومن أسبوع حتى الآخر حين يلقاها، ولكنه لم يستطع أن يطور هذا الانجذاب إلى كلمة يعبر بها لها عما يجيش به صدره أو حتى لفتة من لفتات الشباب المفتون. ولكنه عاهد نفسه أن يصارحها هذا اليوم، نعم، سيقول لها إنه معجب بها، بل لعله يقول لها إنه يحبها وإن لم يكن يدري ما سيتبع ذلك فهو يعرف أن محاولة الارتباط بها ستكون دون شك مرفوضة من أهله ومن تجربة إيلينا مع صديقه متأكد أن أختها لن تدخل في أي نوع من العلاقات التي لا يكون الزواج متممها. وبرغم هذا فقد أخذ كامل قراره وعزم على المصارحة برغم الاستحالات التي وزنها وتصورها جيدًا؛ سيخطو خطوة في اتجاه ديمتريا دون اعتبار إلى أين تأخذه تلك الخطوة، فقد فاض به وتولدت بدواخله حاجة أنْ يبوح لها بسر ولهه، وليحدث ما يحدث. إقدامه وجرأته أججهما لين ورقة ديمتريا معه، فقد كان متأكدًا أنها تبادله إعجابا بإعجاب وأن قلبها أيضًا متعلق به.

حين وصل إلى شبرا أوقف سيارته على بعد من البيت عمدًا إذ قرر أن يفاجئ ليڤون وديمتريا بمقتناه الجديد بعد السهرة لا قبلها. صعد إلى الشقة ومعه كيلو الكباب الساخن الذي وعد أن يحضره معه فأخذته منه إيلينا حين فتحت له الباب.

بدأ برنامج ليلة الجمعة المعتاد في وجود شابين أرمنيين من أصدقاء ليڤون؛ حضرت إيلينا العشاء الذي توسطه كباب كامل

وصاحبه زجاجتا نبيذ أحمر أحضرهما صديقا ليڤون. صاحبة البيت كانت على عادتها مضيافة وبشوشة لم تجلس لحظة واستمرت في كرم بالغ تدور حول منضدة الطعام لتتأكد أن أطباق الشباب مكتظة بالطعام وكئوسهم مملوءة كعادتها. افتقد كامل وجود ديمتريا التي عادة ما تشارك أختها ضيافتهم، فظل ينظر بين الرشفة والقضمة والأخرى إلى الباب في انتظار وصولها الذي تأخر على غير العادة.

حين انتهوا من العشاء لم يكن على المنضدة سوى كئوس النبيذ بما تبقى فيها، والزجاجة الأخرى التي لم تفتح بعد وسرعان ما أخرج ليڤون أوراق اللعب ليبدأوا الفقرة الأساسية للسهرة: البوكر.

جلست إيلينا على الأريكة بجوارهم وهي تسمع أصواتهم تتعالى ما بين أنين خاسر وصياح فائز بعد كل دورة. زوجها بلا شك كان أمهرهم في اللعبة وابتسمت وهي تعلم أنه أيضا أخبثهم فتذكرت في بداية زواجها حين سألته:

- لماذا تبدأ كل ليلة خاسرًا ثم تنتهي ومعك كل أموالهم؟

يومها استغرق ليڤون في الضحك طويلا قبل أن يشرح لها:

- لو كسبتهم من أول السهرة فلن يعودوا للعب، ثم مكاسبهم الأولية تزيد مغامراتهم التالية.

وتذكرت أيضًا يوم سألت ديمتريا ليڤون:

- ألا يفرق مع كامل كم يخسر كل أسبوع؟

يومها رد الأرمني بجدية:

- أرباحه في البورصة تجعل مايخسره هنا ملاليم وبالمناسبة ما أكسبه منه هو نصيبي من مكاسبه في البورصة التي عرَّفته طريقها.

توالت الأدوار وسرعان ما بدأت خسائر كامل في الحدوث. الشابان الأرمنيان استمرا في اللعب بالأموال التي زودهما بها ليڤون وهما سعيدان بعلمهما أنه كلما زادت مكاسبه زادت نسبتهما المتفق عليها بينهم وقت قسمة أرباح الليلة.

ولكن كامل هذا الخميس بالذات لم يكن يفرق معه إن خسر أو كسب، فقد كان ذهنه متعلقا فقط بغياب ديمتريا. لم يركز في اللعب فسهل مهمة ليڤون وأمن لصديقه المكاسب التي أرادها دون مجهود. لم يدرِ إن كان يحق له أن يسأل عنها أختها أو أن يستفسر من ليڤون عن سبب عدم حضورها الذي حيره وإن قرر أنه سيستجوبها مع نهاية السهرة.

فجأة دق جرس الباب فتوقف دور اللعب الدائر وقامت إيلينا تفتح وهي أيضًا مستبشرة أن تكون ديمتريا قد حضرت برغم تأخر

الوقت. أمام الباب وقف شاب ملامحه أوربية تعرف عليه ليڤون ورّا، فهو أخو طوني النقاش الإيطالي الذي يسكن آخر الشارع.

– أنا آسف لإزعاجكم لكن ديمتريا أوصتني أن أعطيكم هذا في هذا الموعد بالتمام.

ومد يده بمظروف مغلق إلى إيلينا:

أختي الحبيبة إيلينا،

حين يصلك هذا سأكون على متن الباخرة في طريقي إلى نابولي. مصر لن تعطيني ما أريد يا إيلينا وسأظل غريبة فيها ذهبت مع طوني إلى إيطاليا لعلي أجد فيها حياة ومستقبلًا. لم أستطع أن أخبرك من قبل إذ عرفت أنكِ لن تتركيني أذهب لأجرب حظي.

سأطمئنك حين أصل

أحبك

ديمتريا



17

الأحـد صباحًا فـي مونبارناس. الميعاد الدائـم والذي لا يحتاج إلى توكيد مسبق للقاء نوال بكلود. منذ صحبها إلى هناك يوم تقابلا في صالـون الخريف وكأنها أدمنـت الذهاب إلى ملتقـى أهل الفن والأدب في باريس يوم عطلتها. ابتسامة مترددة تعلو وجه نوال كلما استعادت الثواني التي احتضن فيها كف كلود يدها قبل أن تستفيق وتسـحبها، وعـادة مـا يتلو تلـك الابتسـامة احمـرار وجهها خجلا ثم لا إراديـا تتحسـس يدهـا فتتسـارع بدواخلها نفس الأحاسيس التـي اجتاحتهـا يومها، كلها دون استثناء مما لم تعهـده ولا اعتادته ولا حتى علمت بوجوده من المشاعر التي تدغدغ الأنفس.

لم تستطع نـوال أن تجـد تعريفا بعينـه لعلاقتها بكلـود، ولكنها استمرت بها؛ فقد أصبح دليلها إلى باريس الضوء والفن والانفتاح. إحساسـه بهـا وبما يؤرقها أو يشـغل بالها كان عاليًـا بدرجة مذهلة، فلما اجتاحها التردد من علاقتهما وكأنه أدرك ما يسـاورها من حيرة أسـرع يطمئنهـا أن فـي المجتمع الغربـي توجد صداقة بيـن الرجل والمرأة وأن مثل صداقتهما لا غبار عليها ولا تشـوبها شائبة، بل هي جـزء مـن الانفتاح الواجب عليها أن تعود بـه إلى مصر من ضمن ما

ستحمله في رحلة العودة للوطن. سواء اقتنعت حقًّا أم فضلت أن تقنع نفسها بحسن منطق كلود حول صداقتهما فقد ارتضت ما قاله وتوارى جزعها من أن تكون لقاءاتهما خطأ أو غير مقبولة.

قرءاته لها وقدرته على إراحتها زاداها انجذابا له وإن ضاعف من انجذابها له موهبته في الرسم ودرايته بمدارسه وأعلامه فقادها إلى عالم تاقت له نفسها وشجعها على الرسم فأصبحا ينتحيان كل أسبوع على طاولة في مقهى لاروتاند يرسمان بشغف ما يلهمهما به الحي النابض بإرهاصات فنانيه وأدبائه من المجددين والفاتحين لأفاق محدثة في عالم الإبداع. نوال ما زالت ترسم بالرصاص مفضلة أن تستبدل بالظلال ما يمكن أن تضيفه الألوان وكلود مستمر في عشقه لمدرسة التكعيب التي كانت أسلوبه التعبيري المفضل. يكيل لها المديح مع كل رسمة جديدة: مديح مخلوط بكثير من الغزل الذي تلحظه وتتجاهله في اللحظة نفسها. يصر أن تلون لوحاتها وتعانده بأن الأبيض والأسود ألوان فيذكرها بأن العالم حولهما ثري بألوانه.

استمر ضغط كلود على نوال في أن تغير دراستها بالسوربون إلى مدرسة الفنون الجميلة وهو غير قادر على فهم أسباب ترددها. وازداد الضغط حين حكت له أن صديقتها درية باحت لها بأنها ستغير من دراسة التاريخ التي اختارتها لها وزارة المعارف إلى دراسة الفلسفة. سردت له نوال ما حدث يوم ذهبت مع درية إلى مكتب

الدكتـور الديواني بك مديـر البعثات المصرية في فرنسـا وانتظرتها بالخـارج آملة أن تدخل بعدها ولكن سـرعان مـا تعالت الأصوات مـن داخل المكتـب والمدير يرفض ويفند طلب درية وهو يعلنها أن الدولة المصرية لم ترسـلها لتدرس الفلسـفة ويزيدها أن بلدها ليس بحاجة لامرأة دارسة لذلك ولكن الحكومة تعرف ما تريده منها وهو أن تدرس التاريخ لتعود وتصبح مدرسـة له في مدارس بنات مصر. تتذكـر نـوال لحظة خروج دريـة من المكتب وهي فـي حالة غضب ظهـرت فـي صوت خطاها علـى الأرض وهي تدبدب في مشـيتها. سـاعتها التاعت الفتـاة وتبعت صديقتهـا إلى خـارج المبنى بعد أن قالـت للديوانـي بك إنها فقـط مرافقـة لزميلتها ولـم تـأتِ لطلب أو حاجة معينة، فقد جبنت بعد أن رأت رفض المدير لطلب درية.

- يومًا ما سـتندمين على عدم متابعـة أجزاء أحلامك التي كانت ستجعل حياتك كاملة.

دومًـا ترن في أذنيها عبارة كلود التي قالها لها يوم حكت له كيف آثرت عدم المواجهة بعد ما حدث مع درية.

رنين هذه العبارة مع ما اسـتطاعته درية من تحويل دراسـتها إلى الفلسـفة رغم أنف المدير جعلاهـا لا تزف لكلود خبر هذا النجاح. مسـببات إعجـاب نوال بدرية هي نفس أسـباب غيرتهـا منها؛ قوتها الداخليـة وإصرارهـا علـى التحـدي لنيل ما تريـد. لم تحـكِ له أن

صديقتها لم تستسلم، بل بعثت خطابًا مطولًا لطه حسين تطلب مدده فيما تريد فكان أن تدخل لدى الديواني بك الذي ما لبث أن وافق على تخصصها الجديد.

صديقها الفرنسي كان دائم السؤال عما وصلت إليه زميلتها ومصرًّا على تشجيعها للتحويل إلى الفنون الجميلة فاضطرت نوال أن تخبره بما نجحت درية في تحقيقه؛ يومها رد عليها بعبارة واحدة:

- صديقتك درية روحها ثورية.

حين يقول كلود هذا عن درية يزداد بداخل نوال مزيج الإعجاب والغيرة من زميلتها. إعجاب بمن تأخذ أمورها بيدها وترفض الاستسلام للمعهود والمتبع، وغيرة من أن كلود يراها في هذا الضوء ويضعها في مصاف من يصفهم بذوي الأرواح الثورية مثل هوجو وروسو وفولتير الذي لا يخلو لقاء لهما دون أن يذكرهم ويشيد بأدوارهم وكتاباتهم في تحرير الأمة الفرنسية. تحاول أن تجد بنفسها قوة درية فتقرر أنها ذاهبة لمواجهة الديواني بك برغبتها وستصر على طلبها، فتنام ليلتها والابتسامة مرتسمة على وجهها فقط لتصحو مراجعة نفسها مؤثرة السلامة وواجدة عدة أسباب ممنطقة أن لا داعي لإثارة القلاقل أو هز المركب وأنها فقط ستجد لتعود بالشهادة التي أكيد سيفخر بها والدها أما الرسم فسيظل مجرد

هواية وموهبة لا داعي لدراسته كما يقترح كلود. لا تمل أن تشرح له أن في الشرق حيث أتت المرأة لها وضعية وحدودية تلفها قد تقيدها ولكنها أيضا تحميها، فيسترسل:

- أوَتظنين المرأة ها هنا منطلقة؟ أبدًا! مقيدة هي منذ بدء الخليقة.. مشت امرأة الكهف خلف رجلها بخطوتين لأنه كان مفتول العضلات وأقوى منها، ومنذ ذلك اليوم حرص الرجل على هذه الوضعية.. صمم الفلكلور الإنساني ليظل متفوقا وقائدا مهما حدث.. وكلما قاومت المرأة تفنن في إظهار ضعفها.. ولكن المرأة استخدمت قوتها العقلية في إيهامه بأنها تابعة وهي جالسة تملي شروطها وتغزلها بخيوط دلالها فتجرده من قوته المزعومة حين تطغى رغبته.

ويستغرق كلود قليلًا قبل أن يعود:

- ولكن الرجال أيضًا بهم خبث شديد يستخدمونه في هذا الصراع حين يظهرون استجابة لفك أغلال قهر المرأة، في حين أنهم فقط يستبدلونها بقيود جديدة من الحرير.

ولكن كلود لم ييأس ولا أحبط من خنوعها واستسلامها أو ما رآه بخسًا لموهبتها ففاجأها هذا الأحد حين أتاها مستبشرًا: أكاديمية جوليان.

- وجدت حلًّا لدراستك للرسم: أكاديمية جوليان.

كان سعيدًا جدًّا وهو يشرح لها كيف تكلم بخصوصها مع صديقه المدرس بأشهر أكاديمية فنون خاصة بباريس وأنه أقنعه أن تصبح نوال مساعدة له أمسيتين أسبوعيا في مقابل أن يعطيها دروسًا في الرسم. أعجب نوال ما اقترحه كلود وقهقهت حين قال لها في شبه يأس:

- حل إصلاحي لا ثوري ولكني أظنه مناسبًا لكِ!

18

ازدادت الجموع أمام مبنى البورصة في شارع الشريفين وهم في حالـة ذهول من وقع الأخبار التي تواترت عما أصاب اسـتثماراتهم من انهيار. حالة عدم تصديق عمَّت لمن أمسوا ليلتهم ولهم ألوفات فـي أوراق ليصبحـوا علـى أنهـا أضحت وريقـات لا قيمـة لها. من ضمـن من وقفوا مشـدوهين وقـف كامل بجانب خـال ليڤون الذي وقف خطوة على اسـتحياء خلفهم وهو غير قادر على اسـتيعاب أثر المصيبة التي وقعت على رؤوس المضاربين.

طالـت الوقفـة قبل أن يقـرر خال ليڤـون أن يقودهم إلـى ميدان سـوارس، حيث مكتب يعقوب ميشـه، لعلهم يجدون لديه ما يهدئ مـن روعهـم ويقـدم الحـل لمصيبتهـم. حين وصلـوا إلـى العمارة الفخمة وجدوا بوابها وقد أوصد أبوابها الحديدية أمام مَن سبقوهم وهو يعلنهم:

- الخواجة غير موجود.. سافر أمس الأول.

مفاجأة تصريح البواب سـمَّرت أقدام الوقوف في الأرض فظلوا في أماكنهم وعيونهم تائهة غير مسـتقرة تخشى ما لم يحسبوه حادثًا

يومًا. لم يكن المتجمهرون صغارًا أو قليلي الشأن، بل جميعهم من ذوي الحيثية.. باشوات وبكوات لعل كامل وخال ليڤون أقلهم قدرًا. حين تلاقت أعين الصديقين استقرأ ليڤون من صمت كامل أن لسان حاله يقول:

- أنت سبب المصيبة.

شمالًا، وعبر الأبيض المتوسط، تماثلت الأجواء بتلك التي في القاهرة. ففي باريس كانت نوال تستغرب الحركة غير الطبيعية التي عمَّت المدينة. أينما مشت في الشانزليزيه أو في منطقة الأوبرا رأت السيارات والمركبات تحمل بحقائب الأمريكيين وهم يسارعون إلى الرحيل دون صخبهم المعهود. وجوههم واجمة مذهولة وبها اصفرار الخائفين؛ وحاملو حقائبهم من الفرنسيين بهم ضجر لعلمهم أنهم لن ينقدوا هذه المرة من المغادرين، وقد نسوا كم الأموال التي عاشوا عليها آماد بذخ هؤلاء الأجانب فلم يغفروا لهم عدم الإغداق عليهم يوم الرحيل.

الجرائد الفرنسية لخصت الجاري بعناوين يائسة بائسة من نوعية:

انهيار تام لبورصتي نيويورك ولندن.

ثم ما لبثت أن أعلنت:

نهاية عقد وسنين الجنون[3].

لـم تكن نوال تتصور أن أثر ما تراه حولها من إفلاس الأمريكيين ورحيلهم وما تبعه من كساد للفرنسيين قد وصل إلى مصر، ولكن خطاب أبيها لها رسم صورة قاتمة لما أصاب أهلها.

القاهرة في 1 ديسمبر 1929م

ابنتي الحبيبة نوال.

أكتب إليكِ والألم يعتصرني مما أصاب العائلة من مصيبة. لقد فكرت طويلا قبل أن أقرر أن أشركك بما نمر به إذ ترددت أن أثقلك بأحزاننا. لعلكِ يا نوال على علم بما أصاب بورصات العالم من انهيار لم تره منذ أنشئت فسحبت بورصة نيويورك الجميع إلى الحضيض ومن ضمنها بورصي القاهرة والإسكندرية. ولقد كان من الذين فقدوا الكثير بل دعيني أقل فقدوا كل ما يملكون في هذا الانهيار عمك. لقد دأبت على نصحه على مدار العام الماضي بأن ينسحب من الاستثمار فيها دون طائل إذ كان يرفض ما أقول ويستمع إلى رعونة وجموح ابن عمك كامل حتى وصل به الحال إلى استثمار كل ما يملك في أوراق أصبحت اليوم لا تساوي الحبر الذي طبعت به. إن حزني اليوم ليس على ما فقده عمكِ فأنتِ تعرفين أني مؤمن بأن الله يرزق كلا منا كما يشاء وقتما يشاء ولكن انكساري سببه الحالة الصحية السيئة التي أصبح عليها. حين تلقى

(3) سُمي عقد العشرينيات من القرن الماضي بسنوات الجنون في باريس كونها كانت بوتقة إبداع فني متميز ومختلف عن الكلاسيكيات التي اعتادها العالم.

الخبـر وجم عمك أيامًا وأسـابيع وظل صامتًا لا يـكاد يأكل ولا يخرج من بيته حتى وجدناه منذ أسبوعين وقد شل جانبه الأيمن وفقد إحساسه به . الأطباء لا يطمئنوننا ولا يرون أملًا كبيرًا في أن يعود إلى تمام صحته. ما يحزنني أيضًا هو حال جدتك التي أصابها الكمد وكأنها في طريقها إلى أن تمرض بما أصاب عمك تضامنًا معه وحزنًا وأسّـى على حاله . أما كامل فردة فعله غريبة إذ هو مسـتمر في نمط حياته وكأن شـيئًا لم يكن، فقط اسـتبدل مصدر تمويله من عمك إليّ. بالطبع لا أستطيع أن أتخلى عن العائلة وأدعو أن يقدرني ربي على الحمل الذي أصبح ملقى على أكتافي دونما خطأ مني ورغم كثرة تحذيراتي. ولكنه أخي يا نوال وسـأفعل كل ما أقدر عليه كي لا يشـعر أنه فقد شيئًا وأنا موجود، لعل ذلك يكون لبنة على طريق شفائه .

آسـف يـا نوال إن كنت قد أثقلـت عليك ولكني رأيت أنـه لا بد لك أن تعرفي أحوالنا كما أنك الوحيدة التي أستطيع أن أشركها في همي وإن بعدت . رغم الغمة يا بنتي أرجو ألا تجزعي فأنت تعرفين حسن تدبيري وإن شاء الله سيمكنني من تخطي الكارثة التي نمر بها

سـأوصيكِ فـي نهاية كتابي بأن تهتمي بدراسـتك وأن تعـودي لي مفخرة بعلمـك؛ فالعلـم هو سـبيل الأمان ضد تقلبـات الزمان يا بنتـي: تذكري ذلك دائمًا

أخيرًا وليس آخرًا أبعث لكِ بأشواقي وقبلاتي وفي انتظار عودتكِ مظفرة عن قريب .

والدكِ المحب

حامد عارف

19

لعل قاطنات شقة بوليفارد سوشيه لم يكن يخرجن معًا إلا يومًا واحدًا من كل عام: يوم 13 نوفمبر؛ لحضور احتفالية مصريي باريس بعيد الجهاد الوطني. لعامهن الثاني على التوالي توجهن معا لحضور ذكرى ثورة 1919 هذا العام في بهو فندق لوتسيا. كالعادة سبقت توحيدة وعليّة زميلاتهن بخطوات وأخذتا تتهامسان طوال الطريق وإن كان بهما هذه المرة حماسة غير معتادة، والشقيقة الكبرى تحتضن حقيبتها باعتناء غير عادي. درية ونوال كان بهما نوع من الضجر لاضطرارهما إلى حضور حفل تعرفان أنه لا جديد به.

حين وصلن كان أحد الخطباء المفوهين يعلو صوته وهو يعدد مآثر سعد ورفاقه:

«ولم يعتمد زغلول باشا على الطبقة العليا التي تسير الأمور والتي تستفيد غالبًا من الغنائم السائغة أثناء الاضطرابات، كذلك لم يعتمد على بعض الباشوات الذين يعتبرون أن هوة سحيقة توجد بينهم وبين فلاحي أملاكهم الواسعة.... .

كعادتها انخرطت درية وسط الجمع تتبادل أطراف الحديث مع معارفها الموجودين، في حين أخذت توحيدة وعليّة تلفان وتدوران وهما تحاولان الوصول إلى مقدمة الجمع، فوجدت نوال نفسها تقف وحيدة تستمع إلى خطبة عصماء لا تختلف عما قيل قبل عام في نفس الموقف، وكأن الخطباء قد أسرهم الزمن. لم تطل وقفتها قبل أن يتقدم نحوها مختار صفوت محييًا إياها؛ لم تكن قد رأته منذ شراكته لها في رحلة السفينة من المحروسة.

- مدموزيل نوال.. أخيرًا تقابلنا في باريس.

لم يتمكن منها الخجل ولا تمكنت اللجلجة من لسانها كما اعتادت، فقد أضحت فتاة واثقة من نفسها، بها قدرة على تبادل أطراف الحديث مع رجل غريب دونما ضربات قلب متسارعة ولا حمرة تغطي وجهها:

- أستاذ مختار؟ ما أخبار حضرتك.. البعثة المصرية بخير؟

- استقلت من البعثة منذ سنة تقريبًا، وأحضر دكتوراه في القانون في السوربون.

استغراب نوال من نبأ استقالته أعطى مختار المجال ليطيل حديثه ووقفته معها:

- الحقيقة أنا كان أملي أني أعمل الدكتوراه بجانب عملي، ولكن وجدت هذا مستحيلًا.

كان الخطيب مستمرًّا في بلاغته:

«سيداتي سادتي يجب عليَّ أن أقول لحضراتكم إننا لسنا شعبًا ثوريًّا أو همجيًّا، كما يزعم بعض المفترين.. لستم يا سادة تسدون صنيعكم إلى مَن لا يعترف بفضلكم، إنما أنتم إزاء شعب كريم فتيٍّ ناشئ له عزم ثابت على أن يحيا عظيمًا دائمًا وسيبقى صديقًا لكم...».

لاحظت نوال تغير وجه مختار فاختفت ابتسامته المعتادة، وأصبح به ضيق فما إن نظرت إليه حتى بادرها:

- يستكثرون علينا أن نثور ضد الظلم وكأنها سبة.. الثورة حق للمظلوم.

ذكَّرها قوله هذا بحكايات كلود لها عن الثورة الفرنسية وكيف قادت العالم كله إلى أول طريق التحرر من تحكم السادة بمن عدوهم أقل منهم. اختار أن يشير إلى نفس الأسماء التي يقتبس منها صديقها الفرنسي: هوجو وفولتير وروسو وكأنهما ينهلان من نفس بئر المعرفة. أعجبتها ثقافته الواسعة ووطنيته البادية المنجرفة بقوة في كلمة يقولها حتى بدأ ذهنها يعقد المقارنات مع كلود ويتساءل

عابثًا إن كان لمختار باع في الفن أيضًا. استمر مختار في حديثه الذي أصبح فضفضة لما بكينونته لا حوارًا معها:

- مطلوب منا نحن أن نترفق بمن يظلمنا؟ والأستاذ يقول إننا شعب ناشئ ناسيًا أننا مَن بدأ الحضارة.. غير منطقي الاهتمام باسترضاء الأجانب.

استمرت نوال صامتة تستمع إليه وقد أدركت أن لا دلو لها تلقيه فيما استرسل فيه وما لبث أن فاجأها:

- أحد أسباب تركي الوظيفة أنه مطلوب منا الخنوع والخضوع دائمًا حتى لو ضد مصالحنا.. أتدرين يا نوال؛ لن نتحرر إلا لما نخلص من كل الأجانب وأولهم ملك كان يستعد ليصبح ملكا لألبانيا قبل أن يغيروا له وجهته للقاهرة.

استرعى سمعها أن مختار لأول مرة لا يقرن كلمة مدموزيل باسمها، وإن راعها نقده الصريح لملك البلاد فلم تجد إلا صمتًا على صمتها ردًّا على الواقف معها الذي لاحظ جزعها فأعاد ابتسامته وفضل عدم الاستطراد في نقده لملك البلاد، وإن دلف إلى كيف يرزح أغلب المصريين في ظلم بيّن فرضه عليهم من بيده مقاليد الحكم من مصريين أو أجانب يوجهونهم، ومالبث أن نحى بحديثه:

- قمة الظلم في عالمنا تصيب المرأة ... الذكورية التي تسيدت وقت اضطرت المرأة أن تذعن لرجلها الصياد بفضل عضلاته المفتولة ما زالت تمنع عن النساء حقوقهن الطبيعية.

حديثه اتسق مع ما كانت درية تقوله لها دائمًا:

- مشكلة عالمية وإنسانية يا نوال .. الرجال لن يفرطوا بسهولة فيما ورثوه .. حتى هنا في فرنسا حيث يتباهون بالحداثة، المرأة الفرنسية المتعلمة لا صوت لها، في حين أن أجهل الرجال الفرنسيين مضمون له حق اختيار مَن يحكمه.

استرسل في حديثه ونوال تستمع له بإمعان فتجد أفكاره مع المفضلين لديها درية وكلود. بداخلها سعدت أن مصريًّا يفكر مثل صديقها الفرنسي، لم يعد بها خفر وقفاتها معه في بداية معرفتهما، بل امتلأت ارتياحًا ممزوجًا ببدايات إعجاب.

طالت وقفتهما قبل أن تلاحظ نوال أن توحيدة وعليّة قد وصلتا إلى جانب الدكتور الديواني بك، وبدأ حديث يدور بينهما. وضح أن حديث الفتاتين وجد اهتمامًا لدى مدير البعثات الذي ظل مصغيا إليهما وهو شاخص في الأرض قبل أن تبدأ عيناه في التجوال بين الحاضرين إلى أن توقفت بشبه جحوظ وهو ينظر إلى درية. استمرت الشقيقتان في همسهما في أذنيه وبعينهما لمعة بها خبث قبل أن تمد توحيدة يدها إلى حقيبتها فتخرج منها أوراقًا مطوية وتعطيها للديواني. أخذ الرجل الأوراق منها ودون أن ينظر فيها سارع بوضعها في جيب بدلته. وإن ظل شاخصا صوب درية التي لم تشعر بأن هناك أعينًا مثبتة عليها. لم تستبشر نوال خيرًا مما رأت وإن لم تجد شيئًا تستطيع فعله، فعزمت على أن تحكي لصديقتها ما دار في طريق العودة إلى المنزل.



20

وصلت نوال إلى شـارع لاجيتيه قبل موعدها؛ إلى شـارع المرح والسرور كما اختار الباريسيون أن يسموه. أمام مسرح البوبينو وقفت تنتظـر وصول كلـود ليحضرا العرض الموسـيقي للراقصة الأشـهر جوزفيـن بيكر. كان هذا موعدهمـا الأول المخطط له والمتفق عليه منـذ تعارفا. بداخلها كان قلق يملأها، لم تعـزه إلى طبيعة ميعادهما بقدر ما أصبح هذا الوجل الداخلي ملازمًا لها منذ انفجار قصة درية وتركهـا المنـزل. منذ يـوم انتقال درية إلـى نزل طالبات السـوربون الدولي ونوال تشـعر بوحشـة ونوع مـن الفراغ وكأنهـا فقدت جزءًا منها، ومع هذا الافتقاد أضحت علاقتها بكلود محل تسـاؤل نفسـي مستمر لديهـا وإن لم تجد بهـا قدرة علـى وقف لقاءاتهـم برغم ما استشفته من خطورة تبعات أن تُشاهد معه.

من وسـط الخواطر التـي تلاطمتهـا فوجئت في وقفتهـا بظهور مختـار صفـوت وتوجهـه صوبها. كعادتـه اتسـعت ابتسـامة مختار لرؤيتها وأخذ يتحـدث دونما أي تركيز من جانبها فيما يقول. ذهب بهـا خيالهـا إلـى أنه على وشـك رؤيـة كلـود قادمًـا ليصطحبها إلى

المسرح، وأنه بالتأكيد ناقل ذلك إلى الديواني بك الذي لا بد وأنه سيكرر ثورته وموقفه مع درية معها. تصورت مدير البعثات صارخًا في وجهها بأنها كسرت حدود شرقيتها وأنهم لم يأتوا بها إلى باريس لتلهو مع الرجال وتضرب بعُرض الحائط تقاليد تربيتها ومجتمعها. في ذهنها توطن أن جرمها بلقاء رجل فرنسي أقسى وأشد مما اتهموا به درية. الأوراق التي وقعت في يد توحيدة وعلية، واللتان سارعتا بتسليمها للديواني، وهما منتشيتان بما اعتبرتاه انتقامًا من تعالي درية كانت مجرد أشعار متبادلة بين درية وشاعر فرنسي التقت به وقت وصلت إلى باريس في النزل الذي سكنته قبل الانتقال إلى شقة بوليفارد سوشيه. تتذكر أنها حين أطلعتها درية على القصائد لم تجد بها عواطف أو رومانسية بقدر ما كان تبادلًا أدبيًا بين شخصين موهوبين ولكن ممثل الحكومة المصرية اعتبر ذلك سوء أدب.

شحب وجه نوال وهي تتصور وصول كلود ومختار موجود؛ كيف لها أن تفسر للمصري علاقتها بصديقها الفرنسي؟ من وسط الشحوب كانت تصارع لتبقي ابتسامة على وجهها ظنت أنها تخفي ما بها. لم تعد عيناها ولا أذناها ولا أيٍّ من حواسها تركز مع حديث مختار المستمر الذي ما لبث أن لاحظ زوغان عينيها فتوقف برهة قبل أن يسألها مباشرة:

- منتظرة أحد يا مدموزيل نوال؟

تلجلجت وتلعثمت قبل أن تنبس نصف كاذبة:

- لا.. أتيت وحدي.

حط الصمت على وقفتهما قبل أن يظهر كلود على ناصية الشارع وهو يسارع ليصل إليها. مادت بها الأرض واضطربت، ولعل ذلك غطى معالم وجهها الذي زاد اضطرابه مع كل خطوة يقترب بها صديقها منها. لاحظت في وسط حالتها المزرية أن كلود بدأ في إبطاء خطواته، وهو ينظر إليها دون أن يبدي أي إشارة تومئ بمعرفته بها، حتى توقف تمامًا على بعد عدة أمتار منها. توقف الفرنسي، وكأنه يتخذ قرارًا مصيريًّا ثم بدأ يخطو مسرعًا من جديد تجاه نوال. حينما وصل إلى حيث تقف مع مختار أحست نوال أن قلبها بالكاد ينبض وإن استمرت في صراع إبقاء ابتسامتها على وجهها. باغتها أن كلود مستمر في سيره دون أن يتوقف عندها، وإن كادت كتفه تحك بكتفها. استدارت تنظر بعد مروره فوجدته يدلف يمينًا إلى شارع متعامد على شارع لاجيتيه ليختفي تمامًا عن نظرها.

ما لبث أن فتح المسرح أبوابه ووصلت نوال إلى كرسيها التي أحست أنها تريد أن يبتلعها ويخفيها. على بعد صفين أو ثلاثة كان كرسي مختار الذي لم يحط نظره عنها. لم تكن تدري ما الممكن أن يحدث: هل يعود كلود ليحتل الكرسي الخاوي بجانبها؟ مرة أخرى تصورت نفسها مكان درية يوم مواجهتها مع الديواني بخصوص أشعارها. كانت على دراية تامة أن ليس بها قوة صديقتها حين صاحت بوجهه أنها لم تخطئ بل مَن أخطأوا هم مَن تعدوا

على خصوصيتها وفتشوا أوراقها. تستعيد لقاءها بدوية في النزل الدولي، وكيف ثمنت صمودها حين أخبرتها بأنها لا تتناول سوى وجبة واحدة يوميًّا من أجل أن تسدد أجرة غرفتها بعد أن امتنع مدير البعثات عن ذلك. يومها أذهلها أي قوة وقدرة لدى صديقتها لمواجهة ما اعتبرته ظلمًا وتخطيًا، وفي نفس اليوم أدركت أن ليس بها مثل أو حتى نصف هذه الصلابة لتصبح علاقتها بكلود سبب قلق وتوتر يسكنانها.

حين انتهى العرض، وبعد أن استمر الكرسي الذي بجانبها خاويًا، سارعت بالمغادرة دون توديع مختار، متجهة إلى المنزل وبها نوع من الراحة أن لم تقع الواقعة التي خشتها. حين نزلت من عربة المترو في محطتها وجدت كلود منتظرًا على الرصيف فأسرعت تركض وجهته حتى توقفت قبل أن تصطدم به فأحست بأنفاسه تلفح وجهها، وبأذنيها يرن بهما صوته:

- مَن يهمه أمرك لا تصرفه ابتسامتك عن الضيق الذي بصدرك.

قال كلماته سريعًا ومد يده لها بورقة مطوية قبل أن يقفز في عربة المترو التي كانت على وشك الانطلاق.

فتحت نوال الورقة التي أعطاها إياها فوجدت رسمًا بالجرافيت[4] لوجهها وأسفله عبارة بخط كلود جعلتها تسرح وتشرد، وهي تتفكر في مغزى ما يدعوها إليه.

(4) الجرافيت: معدن فحمي حديدي تصنع منه مادة الكتابة في أقلام الرصاص.

21

طال وامتد صوت صافرة الباخرة، وهي تمخر ببطء خارجة من بوغاز مارسيليا موجهة بوصلتها إلى الإسكندرية. مطر أقرب إلى الرذاذ الخفيف داعب وجه نوال فاختلط مع دموع لم تتمالكها، وهي واقفة على سطح السفينة تستودع فرنسا بعد تمام عدتها فيها. أربع سنوات مرت سريعًا تحولت فيها الفتاة الصغيرة حاملة البكالوريا إلى آنسة يافعة متحصلة على ليسانس تدريس الجغرافيا من سوربون باريس. افتقدت نوال صخب الصحبة التي رافقتها في رحلة وصولها إلى أوربا، وبالذات درية التي تفوقت على نفسها، وأنهت ليسانسها قبل عام فشدت الرحيل عائدة لقاهرة انتظرتها واستقبلتها استقبال الفاتحين فكتبت عنها الصحف وكرمها كل مهتم ومعجب بإنجازات المرأة المصرية المحدثة، التي أصبحت درية تمثلها. في ذهنها تمنت نوال أن يكون استقبالها حافلًا مثل زميلتها، وإن كانت على عادتها قللت من الاحتمالية مفضلة أن تجهز النفس لعدم الحصول على ما تتمناه عن الحلم بما قد يصبح واقعًا صادمًا. أبوها أرسل لها قصاصات الصحف التي تصدرتها

أنبـاء وصور عودة درية ظافرة دون تعليق منه وإن حملت في طياتها أمله في أن تلقى وحيدته نفس اسـتقبال صديقتهـا. بدواخلها كانت تعلم أنها ليست درية ولن تتلوى الأعناق لتراها ولن تعلو الأصوات لتحيـي إنجازاتها؛ هي نوال التي تنجز في صمت ولا تحدث حولها ضجة، وإن تمنت ذلك بدواخلها، فالبشر وإن أنكروا يعشقون سماع مديح صنائعهم وإن قدموا تواضعًا ظاهريًّا.

قضت نوال أغلب أوقاتها في الرحلة في قمرتها ترسـم الرسـمة تلـو الأخـرى لباريس وما رأت وكأنها تخشـى أن تفلت من ذاكرتها تفصيلـة أو يتوه منهـا انطباع. وكما هو حالها منذ يوم حادثة مسـرح البوبينو رافقها دومًا كلود: خيالًا وذكرى. منذ دس في يدها الرسـم وركب المترو وتبخر صديقها الفرنسـي من حياتها كمن لم يكن بها أصلًا. لـم تنقطـع يوم أحد عـن المونبارناس، تتسـكع، حيث تعودا علـى أمل أن يجيء هو الآخر باحثًا عنهـا. وفي أكاديمية جوليان لم تستحِ، ولم تحمر وجنتاها من سؤال أستاذها وصديقه عن عنوان له فيباغتها ضاحكًا:

- أوَتظنيـن أمثالـه مـن الهائميـن يسـكنون محلًّا ثابتًـا.. إنه مثل الغجر، مرتحل باستمرار داخل نفسه وخارجها.

ثـم ما يلبث محدثهـا أن يلحظ اللوعة التـي بعينيها فيزيل المرح الذي بصوته:

- لم أرَ كلود منذ أمد.. لعله ارتحل إلى روما كما كان تواقًا.

غيابه تركها في حالة عجيبة خشيت أن تفسرها أو تُعرفها؛ أصبحت تسير في حياتها دون مشاعر تجاه أي شيء أو حدث. بها خواء يتغول في أحيان، ويتستر أحيانًا أخرى، وإن كان تمحوره مفاتيحه حول كلود. فإن تذكرت لحظة سعيدة معه تبسمت وإن إزدادت وحشتها له تجهمت. أصبحت تتوق لوجوده في كل ما تمر به، حتى أيام الامتحانات تتخيله بجانبها يسخر منها، ويشجعها في آن واحد. تغضب من غيابه ثم ما تلبث أن ترضى وترتضي الأوقات المميزة، التي قضتها معه. تعجز عن تعريف علاقتهما؛ تجزع حين تجيش بها العواطف أن يكون الحب الذي قرأت عنه، وترتاح حين تنعته بالصديق وتضيف للوصف أنه عزيز؛ تتذكر حين كان يقول لها إن صداقة الرجل والمرأة ممكنة في بلاده بقدر ما هي مستحيلة في وطنها. تتفكر كيف يحكم الزمن على أصحاب المكانة لدينا ألا يكون لهم مكان في حياتنا. كلما ارتحل فكرها إلى كلود استمرت ملتصقة بذهنها العبارة التي ذيل بها الرسمة التي أعطاها إياها آخر يوم محتارة لما رمى ومعددة تفسيرات قصده.

يموج رأسها بالتفسيرات ومع نسمات البحر تأخذها ذاكرتها إلى اليوم في ساحة لويس ميشيل أمام كنيسة الساكركير. توقفا عند الجمع الذي وقف يشهد عرسًا باريسيًا في منتصف يوم مشمس.

خـف قلبها ورفرف وهـي ترى العروس وابتسـامتها وهي تقر بخفر أن شـيئًا لن يفرقهـا عن حبيبها حتـى آخر العمر. نظـرت بخفر آملة ألا يلحظهـا كلود الواقف بجانبها. أحسـت وقتها بـدفء لم تدرِ إن كان مصـدره الشـمس السـاطعة أم فؤادها سـريع النبضات. سـرت في جسـدها رعشـة حين اقترب منها جسـد كلود والتصق كتفاهما لعـل ذلـك كان أول تمـاس بينهما منذ أمسـك يدها يـوم المتحف. مشـاعر لم تستطع تفسـيرها أو لعلها رفضت تعويلها. قلبها بالتأكيد مائـل لرفيقها إن لم يكن مستسـلمًا له وإن كان عقلهـا يجذبها بعيدًا حيث تملي الحكمة أن لا أمل ولا خاتمة مرجوة لما تشـعر. خلسة حاولـت أن تنظر مـن جديد إلى كلـود فالتقت أعينهمـا وهو الآخر يحـاول ألا تلاحـظ نظرتـه صوبهـا. تحدثـت الأعيـن وأفصحـت النظرات عما بالقلوب في صمت مملوء بالمعاني. أمعن كلود النظر إليهـا قبل أن يميل نحوها فيطبـع قبلة خفيفة على جبينها. تتذكر أنها لـم تشـعر بقدميها وكأن قبلتـه رفعتها من علـى الأرض وكأنها طائر يرفعـه الهـواء. ضربات قلبها المتسـارعة المتواليـة دقت لها جرس الانتباهِ فتحركت في خفة لتبعد عنه وهي تتمنى أن يزداد التصاقهما. وما زال أثر قبلته على جبينها لا يفارقها وإن حاولت.

تتبختـر بها السـفينة فيطير بهـا الخيال إلى حيث مرسـى رحلتها تلك: إلى مصر.

ستری أباها فخورًا بما أنجزت، وهي عائدة محققة حلمًا يملك منه مثلها إن لم يكن أكثر. كم أوحشها أباها، وكم اشتاقت إليه؛ حنينه عليها وصداقتهما التي تعرف أن ليس لها مثيل كثير بين الآباء وبناتهن، بالذات في مجتمع يرى البنت عبئًا ويخطط منذ صرختها الأولى للخلاص منها وإلقائها في أحضان غريب، وإن سمى الوسيلة لذلك فرحًا وزفافًا. تبتسم وهي تتخيل جدتها بعد حضن الرجوع الطويل، وهي تتفحص وجهها ثم تسألها:

- من غير يشمك يا نوال؟

ولكنها جدتها التي لن تتغير وستستمر محاربة زمن أحفادها بما فيه من أعاجيب، لن تبذل جهدًا من أجل التكيف معها، بل تطلب من العصر أن يحترم شيبتها وأن يوائم أبناؤه ما تربت عليه من تقاليد، وإن كان من بد لتغيير فليتوقف برهة في وجودها.

تحاول أن تتخيل شكل طفلي بهيجة التي رزقت بهما في غيابها ويعجبها أنها غدت خالة. أما عمها فتعرف من رسائل أبيها أنه لم يطرأ على حالته تحسن منذ خسر الجلد والسقط في البورصة وأن كامل تائه، تواق كما هو للتدليل والحياة الجامحة.

ثم يداعبها دومًا ظهور مختار صفوت في خلفية ذكرياتها في باريس. لقاءات الصدفة التي استمرت في الحدوث، وأحاديثه المطولة معها. لعله هو الآخر أصبح أقرب ما يكون للصديق. كلما ذهبت إلى المونبارناس بحثًا عن كلود وجدته هناك، وكأنه هو

الآخر باحث عن أحد مثل بحثها. التقته يوم ناقش رسالة الدكتوراه، وأخبرها بأنه عائد للقاهرة قبلها بشـهر. ظنته يشاركها انبهارها بدرية حتى آخر لقاء لهما حين شاركها عدد جريدة «الأهرام» الذي تصدر صفحته الأولى خبر خطبتها إلى الأسـتاذ الصاوي. لم تدرِ سـاعتها إن كان به غصة أم أنه لا يلقي بالًا للموضوع قبل أن يعلق:

- درية من النساء اللواتي يبهرن رجالًا كثيرين. ولكن الإعجاب بمثيلاتهـا يظل عن بعد آآمـن، فالقرب منهن أمواجـه عاتية وجنباته مغلفة بالأخطار.

تدافع عن صديقتها لا شعوريًا:

- ولكنها شخصية متفردة ومثيرة للإعجاب.

فيوافقها وهو يزيد عيار نقده:

- أكيـد، ولكنها مملوءة فورة وثورة وصعبة القياد.. صعب على رجل العيش مع مثلها..

لم تتوقع ما تلا:

- مَثيلاتك يا نوال هن الرهان الكسـبان.. مَن يمتلكن خليطًا بين الحداثة وفي الوقت ذاته محافظات على تقاليد تربين عليها.

احمـرت خجلًا، لـم تجد ردًا وإن أعجبهـا أن تكون نموذجًا في رأيه لما يريده الرجل. أحست يومها بكم نضجت منذ بدأت رحلتها

فلم تعد الفتاة التي تتهته حين تكلم رجلًا، وغدت بها ثقة فيما تمثله وما أصبحت عليه. وأطربها ودغدغ غرورها أن تتفوق في مقارنة لدى أحد على درية، موضع إعجابها ومشعلة غيرتها.

- إن شاء الله سأراكِ بعد عودتك.

كانت آخر عبارة قالها لها قبل أن يستودعها فابتسمت، وهي تعرف أنه بطبعه مجامل، وأنها قد لا تراه مرة أخرى في وسط جريان الحياة بهما في اتجاهات متباينة.

شارفت رحلة الباخرة على الانتهاء فاصطفت مع باقي الركاب وهم يشاهدون الإسكندرية تملأ الأفق وتتضخم مع كل فرسخ تقطعه السفينة صوبها. أرادت أن تميز وجه أبيها بين المستقبلين فلم تستطع فأسرعت حين رسوا تنزل إلى رصيف الميناء مستبشرة وراغبة أن ترتمي في حضنه. نظرت حولها وسط تزاحم الواقفين ثم ما لبثت أن وقفت حائرة، وهي لا ترى وجهًا مألوفًا قبل أن تسمع مَن يناديها:

- نوال.

للخلف نظرت فوجدت بهيجة وقد تكور جسمها، وازدادت بدانتها، مع سواد الملبس الذي اتشحت به، وبيدها طفل وبجانبها الأستاذ حلمي حاملًا طفلًا آخر. في لحظات تعانقت ابنتا العم وبدأت بهيجة في البكاء الذي ما لبث أن أصبح تشنجًا؛ لم تكن دموع فرحة لقاء، بل كانت دموع حزن وشجن وحداد.

دموع فقد عزيز.



بعد عشر وبضع سنوات



22

داس كامل على دواسة بنزين الشيفروليه الديلوكس حتى آخرها وهو يحاول أن يختبر قدرة المحرك الأمريكي لسيارته الجديدة التي استلمها صباحًا. كان قد مر من أمام جامع عمرو بن العاص ووجد فيما تبقى من طريق شبه خال تجاه المعادي فرصته ليستمتع بالأحصنة الميكانيكية الكامنة أسفل غطاء موتور السيارة الأمريكية. مشوار أسبوعي اعتاده للمعادي لأكثر من خمس سنوات الآن. بدأه بتاكسي لم يكن متأكدًا من قدرته على دفع أُجرته، وتدرج به الحال صعودًا في وسيلة مواصلاته لهذا المشوار مع تدفق الأرباح عليه بعد أن قضى ثلاثينيات القرن متأزمًا ماديًّا بعد خسارته مع والده الراحل لأغلب ما يملكون في انهيار البورصة الشهير. توالى تغيير السيارات التي أصبحت تمثل تحسن موقفه المالي؛ فبعد شهور قليلة من بدء الصفقة اشترى موريس مستعملة وكأنه يحيي ذكرى السيارة التي باعها قسرًا وقت إفلاسه أو أنه أراد أن يبدأ بها ليمحو سنين الضنك وينفي من ذاكرته حدوثها من الأساس. لم تطل معه الموريس إذ أصبح مقامه يسمح بشراء سيارة يكون هو أول يد تستعملها، فارتقى بنفسه إلى فورد جديدة رافقته حتى قرر مع ازدياد ثروته أن مقامه

الجديد من ضمن أعيان وأثرياء مصر يوجب ألا تقل سيارته بأي حال من الأحوال عن الشيفروليه، التي اشتراها، وفي باله استبدالها عن قريب بكاديلاك ليناظر البكوات والباشاوات في اختياراتهم.

حين وصل إلى مدخل المعادي دلف يسارًا واستمر في السير بين البيوت والسرايات التي زينت شوارعها، وغطت ما بينها وعليها كم هائل من الخضرة والأشجار اكتظت بها حدائق المنازل وأرصفة شوارع هذا الحي الجديد. دومًا ما أعجب كامل بهذه المنطقة، ولكنه أبدًا لم يفكر في أن يسكنها. لم يكن ليبعد عن وسط القاهرة وملاهيها وتلاهيها. في قرارة نفسه كان على يقين من أنه سيظل يسكن عمارة المبتديان ويلهو في شقة شارع شبرا، التي جهزها مرتعًا لنزواته ومغامراته النسائية، التي لم ينهها عنها أو يكبح جماحه تغير وضعه من أعزب إلى زوج وأب.

بعد أن عبر ميدان سوارس استمر في السير حتى وصل إلى مزلقان السكة الحديد، فعبره ووجه السيارة يمينا صوب منطقة دجلة وتل المعادي، قبل أن يقابل أول نقطة حراسة، فاستوقفه الجندي وبلكنة إنجليزية قاسية سأله عن وجهته. ابتسم كامل وهو يخطره أنه آتٍ ولا أقل لمقابلة الجنرال فريبورج قائد الخمس والسبعين ألف جندي نيوزيلاندي[5] المعسكرين بالداخل خلف الأسوار التي

(5) عسكر حوالي 75 ألف جندي نيوزيلاندي بصحراء وادي دجلة منذ عام 1941 إلى عام 1946م.

يحرسـها. لم يكن كامل ذاهبًا لمقابلـة الجنرال حقيقة، فلا علاقة له بـه، ولكنه أراد رؤية هيبة الجندي منه وزوال تبجحه، وهو يدعي أنه قـادم لزيارة كبير وعظيم المنطقة. في الواقع زيارة كامل الأسـبوعية كانت للسـيرجنت واطسون المسئول عن توريدات معسكر الجيش النيوزيلانـدي فـي مصر، ورب نعمة كامل المسـتعادة بعد سنوات الإفلاس والفقر.

حين وصل إلى مكتب واطسـون وجد ليڤون منتظرًا إياه فسـارع نحوه وهو ينزل من السيارة:

- سلمتم البضاعة يا ليڤون؟

- كله تمام يا كامل.

نظرة ممتزجة بصلف من كامل جعلت ليڤون يتنحنح قائلًا:

- أقصد يا أستاذ كامل.

طالما أصر كامل حيـن بدآ يعملان معًا أن يحفظ ليڤون الألقاب لكامـل باعتبـاره رب العمـل، وأن يتباسـطا فقـط في سـهراتهما أو خروجاتهما معًا في غير أوقات العمل.

كـم تفعل السـنون في الناس فتعلـي البعض وتخسـف بالبعض الآخـر كالموجـة العاتية تنقلب على راكبها فتـرده إلى قاعها قبل أن تهدأ فتعيده من جديد على رأسـها. لـم يصبح الصديقان ندين كأيام

المسبك المجاور للوكالة وأنفاس السجائر المختلسة. فمثلما خسر كامل وأبوه ثروة في البورصة، أغلق مسبك الخواجة كركوريان أبوابه بعد أن شح الزبائن وكثرت الديون حتى حجز عليه البنك الأهلي فمات ومن بعده أم ليڤون فقيرين ترعاهما الكنيسة الأرمنية من تبرعات جاليتها. أما ليڤون فقد تنقل من عمل إلى آخر وكلها أعمال بسيطة لا تحتاج إلى موهبة أو خبرة خاصة، فكان مردود وظائفه يكفي بصعوبة بيته هو وإيلينا حتى نهاية كل شهر. ولكن موهبة ليڤون الحقيقية استمرت في قدرته على اجتذاب الناس والحوذ على ثقتهم وما به من مهارة إعداد السهرات الملآنة أنسًا ومزاجًا. فراسته هي التي جعلته يجذب واطسون إليه من يوم أن قابله على مقهى ريش يحتسي جعته. يومها طال بينهما حديث عرف خلاله الأرمني ما لم يكن يعلمه أصلا من وجود معسكر للجيش النيوزيلاندي بمصر الذين أتى بهم الإنجليز (ونيوزيلاندا ما هي إلا جزء من إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس) عضدا في حرب عالمية أصبح جليا أنها ستلامس حدود مصر. خفق قلبه وتواترت ضرباته بسرعة وهو يحاول أن يستوعب الأعداد وكميات احتياجاتهم فلهث وراء واطسون حتى أصبحا صديقين، فضمه ليڤون إلى سهرات لعب الورق الخميسية رغم أنها لم تعد على نفس زهزهتها في أيام العز الضائع. عرَّفه على كامل الذي عارض وقتها وجود واطسون لاعنًا اضطراره للرطن بالإنجليزية من باب اللياقة في وجود السيرجنت. يعض ليڤون على شفتيه كلما تذكر يوم ذهب لكامل مبشرًا:

- حصلت على أمر توريد خضراوات من واطسون.. اجهز يا صديقي.. سنصبح أثرياء حرب.

لم يتحمس صديقه وأنبه نوعًا:

- ومن أين سنأتي بما تريد أن توورده؟ ومن أين لنا برأسِ المال أصلًا يا خواجة يا مخرف؟

- ألم تكونوا تملكون أراضي زراعية يا كامل؛ لا بد أن لك علاقات هناك تستطيع معاونتنا.. رأس المال موجود في بيتك، قرض حسن من زوجتك نرده إليها بمكسب بعد مدة قليلة.

إصرار ليفون وإلحاحه جعلا كامل يرضخ له فاتصل بالباشا الذي اشترى منهم المائة فدان وشرح له الأمر. كان الباشا من أساطين حزب الوفد وأعضاء البرلمان فوجد في وجود وسيط في تعاملاته مع من يسميهم جيوش الاحتلال في خطبه، رفعًا للحرج عنه وتحليلًا لما سيصيبه من مكاسب. سخر الباشا منطقة أراضيه كلها لزراعة وتوريد طلبات الجيش النيوزيلاندي، وتصدر كامل مشهد التعاقد معهم بعد أن استخدم ما اقترضه من زوجته في إيجار مساحة أخرى من الأراضي ليكفي احتياجاتهم فأصبح له كل ربح الأرض المستأجرة ونسبة من توريدات أرض الباشا.

خمس سنوات أو أكثر وهم يوردون المؤن لمن عسكروا دون نزال أو ما يشبهه في صحراء المعادي. أجسادهم الضخمة التي يبدو

أنها سمة مولدهم بجزيرتهم النائية استتبعت طلبيات كبيرة لتغذي جيشًا جرارًا لا يمل جنوده من ممارسة الرياضة يوميًا للحفاظ على لياقتهم، ويلتهمون كل يوم أطنانًا من المأكولات كجزء من استعدادهم لحرب انتهى الأمر بأنهم لم يخوضوها.

أما ليڤون فقد انتهى به الحال موظفًا لدى كامل، يدير، ويتابع، ويحصل كل ما يخص التوريدات؛ والأهم من كل هذا يبقي واطسون سعيدًا، ويسهل له سهرًا وعبثًا وجموحًا وقتما أراد. الحاجة أبقته بعد أن صدمه مَن ظنه الأقرب له:

- نتشارك على أي أساس يا ليڤون؟ وأي نصيب من الأرباح تتحدث عنه؟ الشراكة معناها أن تضع أموالًا وأنت تعرف أن هذا لم يحدث.. اسمع سأعينك مديرًا لهذا الموضوع، ولك عشرون جنيهًا شهريًا يا سيدي.. أظن هذا عدلًا.. وسأسامحك أيضًا عما خسرته في البورصة على يدك أنت وخالك وميشه.

قبل بالفتات وهو يرى نفسه أصل وسبب ما ينهل منه كامل؛ قبل الآن لم يكن لديه بديل، ولكن ظلت به غصة يخفيها خلف ابتسامة مشرقة لا تفارق وجهه وتجعل كل من يراه ينجذب إليه ويحبه. تشاور مع إيلينا فنصحته صبرا وألا يعترض على طمع وضيم صديقه ولا يرفض عرضه، بل لعلها التي أصرت على استمرار سهرات الخميس، وأسهبت في تبجيل كامل أسبوعيًا إبان زيارته

لمنزلهما. وزادت من إعطائه إحساسًا بالتفوق والسمو عنهما هي وليڤون فاستمرأ ذلك، واستمر في علاقته بهما خارج العمل تمامًا كما بدأت مع أول سهرة له في منزلهما بعد الزواج.

الاجتماع مع واطسون هذا الخميس لم يطل إذ إن كل الأمور كانت على ما يرام. حين همَّ كامل بالمغادرة هرول ليڤون خلفه محاولًا أن يواكب خطوات كامل الواسعة فلحقه عند السيارة لاهثًا:

- لا تنسَ اليوم السهرة عندي في البيت.. لن نلعب ورقًا.. عندي مفاجأة كبيرة لك..

سكت ليڤون برهة مستجمعًا أنفاسه قبل أن يُكمل جملته:

- يا.. كامل.



23

مشـرفة كانت واجهـة وكالة الأهواني للمسـتلزمات البحرية في موقعهـا علـى رأس بـولاق. خمـس سـنوات كانت قـد مضت منذ فتحـت أبوابهـا لتخدم الترسـانة البحرية القابعة فـي مواجهتها على الضفـة الأخـرى للنيـل. خمـس سـنوات مضـت منـذ أقنـع الحاج عبـد العليم ابنه حلمي بأن يكتفي بهذا القدر من العمل في التدريس ويتولـى فتـح فـرع القاهـرة مـن تجارتهـم، التـي كبـرت واتسـعت بالإسـماعيلية. وقد كان طلب الأب على مـزاج الابن الذي كان قد مل مهنة التدريس، وأوحت إليه دماء التجارة التي تسري في عروقه أن بإمكانـه إنجـاز وتحقيـق ما هـو أهم وأكبـر من مجـرد أن يكون الأستاذ حلمي الأهواني المدرس بالمنيرة الابتدائية.

أبلـى حلمـي بلاءً ممتـازًا منـذ اليـوم الأول لفرع بولاق. حسـه التجـاري المـوروث الـذي عضدتـه خبـرات والـده وإخوته جعلا للوكالـة من لحظة فتـح أبوابها صدى في السـوق فأقبل المتعاملون عليها وازدادوا ارتباطًا بفعل حسـن معاملات حلمي، وأمانته وتميز بضاعة الأهواني.

عادة ما يكون الصباح بطيئًا في حركته، يقضيه في مراجعة حسابات اليوم السابق التي ما يلبث أن ينتهي منها فينتقل إلى قراءة جرائد الصباح وسط متوالية من أكواب القهوة والشاي التي يأتي بها إليه فهمي قهوجي قهوة السلطان المجاورة على مدار الساعة في توقيت دقيق متوازٍ تمامًا مع إشارات مخ حلمي في طلبها. حين ينتصف اليوم يقوم حلمي إلى الجامع القابع خلف الوكالة فيتوضأ في انتظار صلاة الظهر التي أصبح إمام مصليها كل يوم بما عرف عنه من ورع وتدين زائدين. بعد أداء الفرض وسننه والتسبيح يعود حلمي إلى الوكالة ليبدأ العمل الحقيقي مع توافد الزبائن والعملاء بطلباتهم.

خلف المكتب الفخم الذي يجلس إليه تتجاور صورة الحاج عبد العليم وصورة الملك فاروق الذي تزين صدره النياشين ناظرًا بجانب عينيه، وكأنه يوجه الناظر إلى صورة صاحب المكان المعلقة إلى جانبه.

لم يكد حلمي يعتدل في جلسته حتى اضطر للقيام مرحبًا بالخواجة بنيامين أول زواره في يومه هذا. قصتهما متشابهتان، فكلا الأبوين من الإسماعيلية، ومن المتعاملين مع شركة القنال، وكما افتتح الأهواني لابنه وكالة بولاق أسس الخواجة إفرايم جاؤون لولده البكري محل حدايد في حارة اليهود، ومع التوسع إلى القاهرة انتقل تعاون العائلتين ليتوطد بين الأبناء، كما كان بين الآباء في الإسماعيلية.

- لم آتِ اليوم في عمل يا حاج حلمي.

ابتسامة بنيامين الواسعة جعلت حلمي مستبشرًا:

- خير يا بنيامين؟

- جئت أدعوك لبارميتسفا ابني دانيال الأسبوع المقبل.. الخواجة دافيد دعا الحاج عبد العليم، وسيأتون معًا من الإسماعيلية خصيصًا.

- بار ماذا يا بنيامين؟

- بارميتسفا يا حلمي.. يعني عيد بلوغ دانيال.. احتفال عندنا حين يبلغ الولد سن الثالثة عشرة فيصبح مطالبًا بأداء فرائضه الدينية.. لن أطيل عليك؛ سنصلي نحن وننهي الجزء الديني في معبد المغربي، ثم سننتظرك بعد ذلك على العشاء في البيت في حارة اليهود.. الحاج عبد العليم أكد حضوره.. ضروري تشرفنا يا حلمي..

- إن شاء الله نكون معكم.. ومبارك بإذن الله.

استمر اليوم بزواره وأعماله، قطعه فقط قيام حلمي لصلاة العصر في المسجد قبل أن يعود ليشرف على ترتيب المخازن التي يحرص على الوقوف وسط العمال أثنائها استعدادًا للإغلاق قبل المغرب بقليل. كان يومًا مشحونًا بالطلبات والتجهيزات فطال توضيب وتستيف العمال للأحبال والحدائد وألواح الأخشاب بالمخزن بعد

كثرة السحب منها؛ وحلمي يقف وسطهم ومسبحته بيده، يشرف بعينيه ويعطي التعليمات بين الآونة والأخرى، وشفتاه لا تتوقفان عن التسبيح، ولسانه يكثر من الحمد والشكر.

على الرصيف المواجه للوكالة لاحظ الأفندي الواقف منذ أمد يرقبه. شاب مرتب ببدلة داكنة، خلع طربوشه وأمسكه بيسراه، طالت وقفته وهو يرمقه ولا ينزل نظره من عليه حتى بدأ حلمي يبادله النظرات، فما كان من الرجل إلا أن تقدم صوبه فتحرك هو الآخر ولاقاه عند المكتب.

- الأخ حلمي؟

على الفور انتبه حلمي إلى اللقب الذي ناداه به..

- الأخ فايز بعثني إليك..

أعاده الاسم بضع سنوات إلى الوراء. يوم أخطروه بأنه تم اختياره ليكون جزءًا من تدريبات خاصة ليصبح من ضمن أشداء يصلبون عود الجماعة ويمثلون المؤمن القوي بكل معانيه وصفاته، جسدية ونفسية. تذكر تدريبات المقطم ومعسكرات ضرب النار في الصحراء وكيف اجتازها باقتدار فكان أن ذهب في إحدى الأمسيات ليحلف اليمين والعهد أمام المتدثر الذي لم يرَ وجهه لا قبل ولا بعد أن مد له يده بالمصحف والمسدس ليردد خلفه قسم الولاء؛ ليُشعر عن الارتقاء والانتقاء الذي شرف به ليصبح أحد أعضاء النظام

الخاص الذي أزمع الأستاذ البنا تأسيسه في أول الأربعينيات ليكون درع الجماعة ومكمن قوتها.

- تحت أمرك يا أخ..

- اسمي علوي ومعي حاجات تحتاج إلى تخزين.. بعيدًا عن الأعين طبعًا.

فكر حلمي سريعًا ثم بادره:

- انتظرني في الخارج حتى أصرف العمال وأعود إليك.

في عجالة عاد إلى الوكالة صارخًا في العمال المذهولين أن يتركوا ما يفعلون وأن يبدأوا في الإغلاق فورًا. ازدادت دهشتهم حين أصر على أن يغادروا وأن يتركوه ينهي أعمال الدفاتر على أن يقوم هو بالإغلاق النهائي حين ينتهي. حين عرضوا أن ينتظروه زجرهم مهددًا إياهم بالعقاب إن لم يتركوه من فورهم.

بعد أن غادروا انتظر حلمي فترة قبل أن يخرج إلى الشارع باحثًا عن زائره. تلاقت نظراتهما وتفهم الرجل أن مضيفه يطلب إليه أن يحضر ما يريد تخزينه فعاد أدراجه تجاه سيارة سوداء كانت واقفة على ناصية الشارع. حين بدأ يتحرك بالسيارة علا صوت المؤذن يدعو لصلاة المغرب، وقد بدأت السماء تخالط وتغزل بين ألياف

الضوء الشاحبة المنسحبة وأمواج الظلام الزاحفة برغبة الإحلال وإعلان سيطرة الليل.

ما إن توقفت السيارة أمام الباب حتى بادر حلمي بفتح بابها الخلفي ليجد صندوقًا ملفوفًا بالقماش على المقعد، فحمله وتبعه مَن كان متأكدًا أن اسمه ليس علوي إلى الداخل. كانت ضربات قلب حلمي متسارعة، وأذناه بها رنين كلمات الأستاذ البنا:

«أجل.. صناعة الموت؛ فالموت صناعةٌ من الصناعات؛ من الناس من يحسنها فيعرف كيف يموت الموتة الكريمة، وكيف يختار لموتته الميدان الشريف والوقت المناسب، فيبيع القطرة من دمه بأغلى أثمانها، ويربح بها ربحًا أعظم من كل ما يتصوَّر الناس، فيربح سعادة الحياة وثواب الآخرة، ولم تنتقص من عمره ذرة، ولم يفقد من حياته يومًا واحدًا، ولم يستعجل بذلك أجلًا قد حدَّده الله.

ومن الناس جبناء أذلة؛ جهلوا سرَّ هذه الصناعة، وغفلوا عن مزاياها وفضائلها، فمات كل واحد منهم في اليوم ألف موتة ذليلة، وبقي وموتاته هذه حتى وافته الموتة الكبرى ذليلةً كذلك، لا كرمَ معها ولا نبلَ فيها، في ميدان خامل خسيس ضارع، وقضى ولا ثمن له، وأهدر دمه ولا كرامة»[6].

---

(6) مقال حسن البنا في مجلة النذير - العدد 18 - سبتمبر 1938م.

بسرعة وفي حماسة من وقْع تذكره كلمات البنا التي تدافعت بداخله، فتح حلمي باب المخزن ومشى إلى باب آخر داخلي أخرج مفتاحه وفتحه ليضعا الصندوق بالداخل. حينذاك سأله الرجل:

- المكان أمان؟

- لا يوجد إلا مفتاح واحد معي.

- إن شاء الله سآتي لأخذه قريبًا.

بعد أن غادر الرجل عاد حلمي ففتح الباب وكشف القماش من على الصندوق ليتأكد مما شك فيه، حين قرأ على الصندوق بالإنجليزية:

«مفرقعات مِلك الجيش البريطاني».



24

لـم يعد بيـاض أسـنانه فقط الـذي يضاد سـمرته بعـد أن زحف الشـيب إلـى شـعره الأكرت؛ ولكـن إدريس مـا زال صلبـا عفيا في موقعـه بوابـا لعمـارة المبتديان، لـم يهزمه الزمن الـذي زحف على تقاطيعـه. كالتعليمـات كان مجهـزا السـيارة الأجـرة التـي سـتأخذ الأسـتاذة نوال لمشوارها السـنوي، مشوار رافقها فيه دائما من وازع حبه لمن تزور.

نـوال استعدت هي الأخرى فلبسـت السـواد كما لو أن سـكان القبـور ينتظرون منها حدادا وقد مر من الزمن ما مر. تشـتكي القبور مـن الأحياء أن ترددهم يـزداد في بداية احتضانهـا لأحبائهم قبل أن تتباعد طلتهم على من دفنوا ويتغلب النسـيان في صراعه الأزلي مع الشوق والحنين. ولكن يبقى الأصلاء من أمثال نوال يحافظون ولو علـى عادة سـنوية يكفرون بها عـن ذبول الذكرى وخفوت الشـوق والتأقلم على الفقدان.

يـوم الزيـارة تخالـج نوال نفس مشـاعر يـوم التقـت بهيجة على رصيف ميناء الإسكندرية فانهارت بنت عمها وهي تحتضنها وبكت

بدموع الفقدان لا دموع لقاء بعد اشتياق. ساعتها لم تدرِ نوال ردة فعل مناسبة حتى أرادت أن تهدئ من روع بهيجة فهمست في أذنها:

- الله يرحم عمي محمود يا بهيجة.

كانت كلمة لها مفعول سحري فتوقفت بنت عمها في لحظتها عن البكاء ونظرت إليها بعينين حائرتين رطبتين، ثم فتحت فمها ولكنه علق على وضعه فلم تستطع نطقا. حينذاك تدخل حلمي:

- عمي محمود بخير يا نوال.. عمي حامد تعيشي أنت!

صاحب الحلم لن يستلمه منها وهي التي عادت فقط من أجل نظرة الفخر التي ستحتضنها بها عيناه. لا تتذكر تفاصيل سفرتها من الميناء إلى المبتديان، فقط تشعر بوجهها الرطب من إثر الدموع حين تحاول أن تستعيد هذا اليوم الكئيب. تتذكر نظرة حزن عم إدريس عندما كانت قدماها مترددتين.. هل تصعد السلم أم تعفي نفسها من الوصول إلى بيت توقفت فيه أنفاس أعز من لديها في الحياة. تصعد وينفتح باب البيت على جدتها قابعة حيث تركتها ولكن بلا روح، فما أتعس الأم التي تودع ابنها الذي طالما أوصته بمراسم توديعها لدنيانا، فيقرر القدر أن يسبقها وأن تكون هي من تتقبل فيه عزاءً غير متفق مع سياق يظنه بنو آدم طبيعيًّا في ترتيب مغادري الحياة.

ظلت تقاوم دعوة جدتها شهورًا:

- ألن تذهبي لزيارة أبيكِ؟

رفضها كان عصيانا لفراق فرض عليها. أحست أن زيارته ستكون إعلان وفاته الحقيقي، وانتهاء لذكرى بدأت تشحب في أذهان من حولها. مرت ثلاثة أشهر قبل أن تطلب من عم إدريس أن يجهز عم سمعان بحنطوره صبيحة اليوم التالي كي تقوم بمشوار. لم يتركها النوبي دون أن يعلم وجهتها التي ما إن علمها حتى أصر على أنه مرافقها في زيارة حامد وأصبحت هذه الرفقة سنة زيارتها السنوية.

حين وقفت أمام قبره يومها خاطبته بغضب:

- لمَ أبعدتني عنك وأنت تنوي المغادرة.

ثم تجد أنها تعدت حدودها فتتمتم:

- رجعت بما حلمت بأني عائدة به.. حزت على ما تمنيت يا أبي.

طال وقوفها أمام قبر حامد تحادثه وتشكو منه وإليه. تسأله وتستفسر منه كيف أستطاع أن يتركها دون إنذار ولماذا أرسلها بعيدا ووقته محدود؟ كان الأكثر إيلاما ذلك الشعور بالشوق الذي يعرف من يعانيه أن لا دواء له وأن جرح الفراق لن يدمله لقاء غدا مستحيلا وفراقًا لا وصف له سوى الأبدية. لا تذكر أنها دعت له أو قرأت

وِردًا؛ فقط حادثته عاتبة ملتاعة ومتشوقة. لم تشعر بوقت يمضي حتى لمس عم إدريس مرفقها برفق شديد لترفع رأسها فتجد شمسا خجل قرصها وبدأ يتوارى خلف سحب تحمل غيوما مختلطة بمقدمات ظلام. لم يعلُ صوت سمعان وهو يعطي حصانه تعليمات احتراما لسكونها وهي قابعة في الحنطور ودموعها لا تنضب ولا تكف عن الانهمار حتى إنها لم تلحظ إدريس وهو يميل على الحوذي طالبا منه التوقف في الطريق قبل العودة إلى المنزل. انتبهت فقط على صوت سمعان آمرا الحصان بالتوقف.

حين أطلت من داخل العربة وهي تهم بالنزول فوجئت بمكان غير المكان ورجل شبيه بإدريس يتقدم نحوها:

- شرَّفتِ يا هانم.

احتارت حتى سمعت إدريس يقول لها:

- هذا بشير ابن عمي يا أستاذة نوال.

ثم سكت قليلا قبل أن يستطرد:

- وهذه عمارتكِ التي تركها لك المرحوم حامد.

حكى لها النوبيان قصة العمارة منذ اشتراها أبوها وكيف أمنهما عليها، وشددا على توصيته ألا يبوحا بسرها لأحد، وعلى حساب البنك الأهلي ورقمه وما يودع به آخر كل شهر. أسهب الأسمران

الأمينـان في وصف كيف احتارا بعد رحيل حامد حتى اتفقا على أن ينتظرا عودتها ليسلما لها ما أثقل كاهليهما الحفاظ عليه؛ ثم ما لبث بشير أن أضاف:

- وهذا عقد الملكية أعطاه لي المرحوم آخر مرة زرته وأوصاني أن أعطيه لكِ.. كان قلبه يشعر بقرب رحيله.

حتـى يومها هذا لا تـدري نوال لِمَ التفتـت لإدريس حين ركبت الحنطور من جديد وقالت له متأسية بأبيها:

- لا أريد أن يعرف أحد عن عمارة محمد سعيد يا عم إدريس.

استمرت عادة زيارتها ولم تنقطع سنة تلو الأخرى، فقط اختلفت وسيلة الانتقال وزاد عدد من تعود في المقابر بعد أن قبع إلى جانب أبيهـا عمها، ومن بعـده بقليل جدتها المكلومة بفقـد ولديها فآثرت لصمتهـا الـذي لازمهـا بعـد فراقهمـا أن يتحـول إلى صمـت أبدي ورحلت إلى حيث سبقها ولداها.

حين ركبت السـيارة الأجرة وقفز إدريس في الكرسـي الأمامي، عـادت نـوال إلى ذلك اليوم الذي أبـى إلا أن يكون طويلا: يوم أول زيـارة لها لأبيها حيث وارى جسـده التراب. يومهـا انطلق الحصان صـوب المبتديان بعد زيارتها لعمارة محمد سـعيد، وعند الاقتراب مـن البيت كادت تقسـم أنها رأت مختار صفـوت وإلى جانبه رجل أشـيب له نفـس تقاطيعـه، يغـادران العمـارة ويركبان سـيارة واقفة

أمامها. ساعتها نزلت مسرعة متلهفة محاولة الوصول إليه ولكن لم تلحق بالسيارة التي كانت قد بدأت في التحرك. توقفت ذاهلة بعض الشيء ثم أكدت لنفسها أنه لم يكن مختار ؛ لماذا سيأتي إلى هنا؟ ليراها ؟ ابتسمت سعيدة حين راودها هذا الخاطر فقد أوحشتها باريس ومن ارتبطت بهم في مدينة النور، وهو منهم دون شك. ما لبثت أن نهرت نفسها علي سذاجة تصورها أنه أتى لرؤيتها؛ فلماذا سيفعل ذلك؟ ثم إن فعل فلم سيأتي ومعه مرافق؟ أكيد أن طول يومها وما غمرها فيه من مشاعر جعلاها تتخيل وتهذي ويشتبه لديها الناس. استمرت تسفه من رؤياها وهي تسر بنفسها:

- ولمَ سيأتي مختار إلى هنا !

حين صعدت إلى البيت وجدته مظلمًا مهجورًا فأدركت أن جدتها قد صعدت على غير العادة تزور عمها الذي أقعده المرض عن الخروج من شقته. دخلت غرفتها مقررة أن في الأغلب عليها استكمال ذرف الدموع التي حبست كثيرًا منها منذ عادت لتجد نفسها وقد استكملت أركان اليتم. لا تتذكر إن كانت غفت، ولكنها متأكدة من أن جدتها نادت عليها لحظة فتحت باب الشقة حين عادت من زيارتها لمحمود.

- يا نوال.

كفكفت دموعها سريعًا فلم ترد أن تثقل على جدتها أو تجدد أحزانها التي كانت تعرف أنها تفطر قلبها، ثم سارعت خارجة إلى الصالة ملبية النداء.

- تعالي يا بنتي.

قالتها الجدة في حنية وهي تحتضنها قبل أن تبشرها:

- مبروك يا حبيبتي.. أنا وعمك نوينا نزوجك.



25

انغمس كامل بكل حاسة من حواسه في الاغتراف من الجَسد المرمري الذي بين يديه. لم يعرف ممارسة للحب مثل تلك التي كان منغمسا فيها في تلك اللحظة. تذوق كل ما فيها فلم يسلم جزء من جسدها من لسانه ولم تمل شفتاه تقبيلها بعمق وتطويل. يداه استمرتا في لمساتهما مستكشفتان جسمها الذي تركته يرتع فيه دون تمنع حتى استغرب نفسه وهو المتمرس أن يكون في ذلك متعة لم يعرف وجودها. نعومتها ملكته وجعلته يستزيد من لمسها فتنزلق يده على جسدها الأملس منتجة شرارة تزيد شهوته وتعلي رغبته. شغف وشبق سنين جعله يطيل لحظات اعتاد أن ينهيها مع غيرها دون التفاتة لتناغم أو محاولة لتلبية احتياجات لدى شريكته. حين ازدادا التصاقا سرت رجفة لم يك متأكدا إن كان جسده أو جسدها مصدرها، أو لعلها نتاج توحد شبقهما. لم يعرف من قبل أن تأوهات امرأة قادرة على أن تشعره بمستويات لم يعهدها من الإشباع، فاجأته بوجودها فقط ليزداد اندهاشه حين سمع من دواخله تأوهات لم يكن يدري أن به قدرة عليها. حين ظن أنه انتهى وجد أنه غير قادر

سوى على الاستمرار والبدء من جديد؛ يغترف بنهم ولا يكل وهي تتجاوب وتزيده رغبة وتغمره بما لا يستطيع أن يدعي سابق اختباره. باحترافية قادته وهي تشعره أنه السيد المهيمن، وبخبرة جعلته موقنا أن رجولته لا مثيل لها وهو طوع يديها وجسدها. لأول مرة في حياته حين فرغ كامل وبلغ نشوته أخذ خليلته في حضنه، وهو المعتاد أن يقفز من السرير حين ينتهي من زرع بذرته. استرخى على ظهره وهو يشد رأسها في حنان ليضعه على صدره ويمرر يديه في سعادة ما بين خصلات شعرها الأشقر، وبين الفينة والأخرى يتملى في وجهها الذي لم يغيره الزمن. يذهب ذهنه إلى أيام الشباب والحب الأول وما يلبث أن يتبسم وهو يشكر ليقون في باله على أحلى مفاجآته على الإطلاق: عودة ديمتريا من هجرتها. ينظر مرة أخرى إلى وجهها وكأنه يتأكد أنها هي التي بحضنه وأنه لا يحلم، بل هي حقيقة يملكها وزوجة ثانية طال انتظاره ليوم تصبح رفيقة سريره.

كانت هذه أول ممارسة شرعية لديمتريا؛ أول مرة في سرير رجل وهي حائزة على لقب زوجة. لم تتوقع أن يكون كامل من الرجالَ المحتضنين ما بعد الانتهاء، وإن أكبرت فيه ذلك فاستمرت ملتصقة به ورأسها على صدره ولكن بإرهاف كي لا تطيل إن ضجر أو استكفى. هكذا كان تمرسها فقد تعلمت أن تعطي الرجل كل ما يشتهي تقربا أو تباعدا، التصاقا أو احتضانا أو انفصالا، حديثا

أو صمتا؛ أن تكون خير خادمة لسريره كي يصبح خير قائم على متطلباتها خارجه. مع كامل أحست براحة الإنجاز، إنجاز أن توصلت من الحميمية الأولى إلى مفاتيح شهواته ومغذيات شبقه.

تتذكر أنها أول ممارسة زوجية لها فتواردها كلمات إحدى صديقاتها:

- الجنس غير الشرعي أمتع من الشرعي بألف مرة.

البداية كانت مع طوني في ضوء القمر على ظهر المركب الذي غادرا به الإسكندرية إلى نابولي. وعد الزواج ظل وعدا وإن عاشا معا كزوجين، ولكن دوما وجد سببًا لتأجيل مشوار قصير لإتمام الزيجة بالكنيسة. هل استغل سذاجتها وكان مبيتا النية ألا يقنن ارتباطهما؟ سؤال لم تجد له إجابة بعد أن فرقتهما الأيام.

لعل أجمل أيامها مع طوني هي تلك التي تبعت استقرارهما في الحجرة الصغيرة القريبة من البياتزا نافونا. شابان مقبلان على الحياة، قابلان أن تعطيهما أقل القليل، مستمتعان بما تمرره عليهما وما تمررهما به. كل منهما يقضي الصباح في وظيفة قد لا يكون منها جدوى؛ ديمتريا نادلة وطوني مساعد لنقاش، فقط لينطلقا مساءً ينهلان من متع روما وملذاتها. غاصا بكل ما يملكان وبعض مما لا يملكان فيما كانت المدينة مستعدة أن تشركهما به.

وقوعها في حب طوني كان بديهيا، فوجدانيا تلاقيا عند شعورهما بالاغتراب بين أهل بلد يريانهما أجنبيان مهما تمصرا وأهاليهما هم ممن لا ينقطعون عن اللهج بأمجاد الوطن الأم أو بلد الأصل. وجدت من يشاركها نقمتها على أحاسيس عدم الارتباط بوطن وجدت نفسها مفروضة عليه ومفروضًا عليها. ولكن أسباب تعلق الشابين ببعضهما لم تتوقف عند الغربة والوحشة بدواخلهما فقد كانا جذابين ولافتين للأنظار بين نظرائهما. ملامح ديمتريا الأوربية وشقارها اللافت وجسدها الملفوف بتضاريس بارزة إلى حد الاستثارة وازاها جسم طوني الرياضي ودقة تقاطيع وجهه بعينيه الواسعتين وأنفه القيصري و شدة بياض بشرته التي يردها حواجب ورموش رسمها قلم كحيل و شعر أسود متفحم ناعم ورثه من جدوده الصقليين.

لاحظ مجتمع روما جمال ديمتريا ووسامة طوني وتفاعل معهما. فكما غازلها رجاله تكالبت فتيات ونساء في محاولات خطف صيدها منها. تعاملت ديمتريا مع محاولات الرجال بحزم الفتاة المرتبطة ففضتهم من حولها مستزيدة من تعلقها برجلها ومظهرة ذلك على الملأ متى أوتيت الفرصة. ولكن غرائز طوني غلبته، وفتوته وشبابه لم يتركا لعقله ولا قلبه تحكما. أراد تذوقا ونهلا من كل المعروض عليه فبدأ البعاد عن ديمتريا رويدا رويدا. وجد مسببات أن لا ترافقه في خروجاته اليومية، وحين بدأ الشك يسابرها لم يطمئنها أو يقطعه

بل ازداد الكذب واستشرت أسباب التباعد. اكتشف طوني أنه ليس بحاجة لأن يعمل يوما أو يجهد نفسه في أشغال يدوية أصبحت تافهة في نظره وهو يرى نساء ثريات مستعدات أن يقدمن له كل ما غلا وطاب فقط ليكون في صحبتهن ويصبح أداة إطفاء ظمئهن وشبقهن. حاربت ديمتريا من أجل من أحبته ولكنه كان قد انغمس إلى حد اللا رجوع. لم يمض وقت طويل حتى ظهرت من قررت أن تستحوذ عليه لنفسها وبأموالها دون شريك، لتصحو ديمتريا على حجرة خالية من وليف وحاجياته، وجملة مكتوبة على نصف ورقة بخط طفولي يخطرها فيها برحيله مع الكونتيسة إلى فينسيا ويتمنى لها حظا لم تجده معه.

سرعان ما تصادم واقعها معها فأيقنت أن حتى الحجرة الصغيرة لا طاقة لها بإيجارها من مرتب نادلة فانتقلت إلى حي أفقر جنوبي التيبر[7]. في حجرتها الجديدة البائسة، ومن شباكها الضيق تعرفت على وجه قبيح لمدينة عشقتها يوما. فقر وقفر وضنك وناس يمرون في الحياة وقودًا لغايات من يملكون زمامها، وأذناب الاقوياء يعيثون ويعبثون بأولئك ممن لا يملكون اعتراضا. رأت قمصان موسوليني السوداء[8] يرهبون ويرعبون من يفكر أن لا يلتزم بإملاءات الدوتشي[9] وشطحاته.

(7) التيبر: نهر يمر بمدينة روما.

(8) القمصان السوداء ميليشيات شعبية أسسها موسوليني لقمع معارضيه.

(9) الدوتشي: هو اللقب الشعبوي الذي أطلقه موسوليني على نفسه.

لم يمض وقت طويل عليها في سكنها الجديد حين سمعت نقرا على الباب الخشبي العتيق. فتحته لتجد أمامها فرانكو ومن ورائه اثنان من رجاله. كانت تعرف أنه قائد القمصان السوداء بالحي. استكمل فتح الباب الذي واربته فأصبح بداخل الحجرة قبل أن يومئ لمرافقيه بقفله، فشده أحدهما لتجد ديمتريا نفسها على انفراد مع قاسي الملامح، غليظ التقاسيم المدعو فرانكو. سألها سؤالًا واحدًا عن قصتها وهو يصوب إليها نظرة قاصمة جعلتها لا تنسى تفصيلة عن كيف وصلت إلى هنا. حين قاربت من الانتهاء جعلها ترتعش بتعليق واحد:

- لستِ إيطالية إذًا؟

كانت تدرك معنى أن تكون أجنبية وسط شعب اختار اعتناق الفاشية وأمام رجل يطبقها على من يختار قسرًا. ارتعدت ولم تجد ردًّا لتسمع أمره التالي:

- اخلعي ملابسك.

تذكِرت المسكين الذي أمسك به فرانكو ورجاله قبل يوم فسكبا الزيت في جوفه وتبعوه بضفضع حي داخل جوفه عقوبة على رفضه تنفيذ أمر لهم. أصابعها أخذت المبادرة فبدأت في فك أزرار ثوبها. حين أخذها سالت دموعها من جانبي عينيها وخرجت آهاتها المكتومة رغما عنها وإن ظن الرجل القابع فوقها أنها صوت

سعادتها بفحولته فاستمرأها. حين انتهى منها وبعد أن شد حزامه إلى موضعه أخرج من جيبه قطعة معدنية وطسَّها في الهواء نحوها لتسقط بجانبها وهي ما زالت عارية في السرير. ظنته قال وهو يفتح الباب:

- لاجريكا الجميلة[10].

لم يحتفظ بها فرانكو لنفسه أكثر من أسبوع ثم غلب ولاؤه للدوتشي على ولعه بلاجريكا فنقلها بحقائبها إلى ما يسمى بيتًا مغلقًا؛ تمارس فيه مع أخريات أقدم مهن البشرية تحت إشراف من حكومة موسوليني. اكتفى لنفسه بمجانية مضاجعتها كلما أراد وأفسح لها بيع جسدها لمن يدفع وأصبحت لاجريكا أشهر عاهرات الحي الفقير وأغلاهن ثمنا وأكثرهن طلبا. لم تستطع مقاومة ولا رفضا وهي تعرف مصير من يتصور أنه يستطيع تحدي القمصان السوداء أو زعيمهم. لم تستطع أن تقرر أو تجد ردا على سؤال ظل ملحًّا عليها: أبائع أم شاري تلك المتعة أعظم خطيئة؟

مرت سنوات عليها في البيت المغلق في روما؛ سنوات أيامها متشابهة وأوجه زبائنها لا تميزها. تذيقهم كيف أرادت فيعود بعضهم ويختفي آخرون؛ أنواع مختلفة حفظت شاكلاتهم ما بين لين يريد حنانًا وشديد يستعرض قدراته، وديمتريا دائما تسوسهم

(10) لاجريكا. معناها الأنثى اليونانية باللغة الإيطالية.

وتتحكم فيهم كيفما أرادت، حتى جاء اليوم الذي توقفت فيه سيارة الجيش الإيطالي أمام البيت وصدرت التعليمات لساكنات البيت بالاستعداد للمغادرة فورا. صعدن إلى حاملة الجنود في نظام عسكري صارم فرضه عليهن الضابط قائد المجموعة وعساكره.

حين توقفت بهم العربة بعد عدة ساعات من السفر وجدن أنفسهن في ثكنة عسكرية بفيرونا المدينة الحالمة. أصبحن جزءا من المجهود الحربي الإيطالي ودورهن التسرية عن جنود الدولة. حين انتقاها قائد المعسكر لنفسه تذكرت ديمتريا قارئة التاروت التي بشرتها بصفو سماء مستقبلها. أقصى تطلعاتها كانت قد أصبحت أن تكون لرجل واحد؛ فقد أنهكها التناوب الذي يعيشه جسدها.

مع القائد لم تبخسه أي متعة تتقنها أو تستطيع تقديمها فظلت محظيته دون مشاركة. استمر الوضع مستقرا حتى احتدت الحرب وأنهك الحلفاء جيوش إيطاليا بهجمات من شمال وجنوب البلاد مستمرة وموجعة حتى جاء اليوم الذي رأت فيه رفيقها يهرع إلى سيارته ويأمر سائقها بالهروب من المدينة التي سقطت. تتذكره وهو ينظر إليها في خوف ثم يشيح بوجهه عنها محاولا إخفاء الرعب الذي تملكه. لم تدرِ ساعتها إن كانت تحررت أم أنها على وشكك الوقوع في أسر جديد. احتارت بعض الشيء حين أصبحت محتاجة إلى أن تتخذ قرارا وهي التي اعتادت أن تكون مؤتمرة ومسيرة بتعليمات من رجال بأيديهم قيادها.

لـم تدم حريتها طويلا إذ ضمها الحلفاء حين وصلوا المدينة إلى فرق تسـرية الرجال. ليلة واحدة قضتها ديمتريا انتهت برجل يرتدي بنطاله وهي عارية على السـرير ويقذف لهـا بقطعة معدنية تهبط إلى جانبها. أدركت أن البداية ستسـتمر في التكـرار وأنه لن تكون هناك نهاية. حينها جمعت ما استطاعت وشدت الرحيل إلى نابولي ومنها إلـى الإسـكندرية. عادت إلـى وطن هربت مـن غربتها فيـه إلى بلد اختار لها انحطاطا لم تستطع له رفضا ولا مقاومة.

عـادت إلـى حضـن إيلينـا ودفئها ومن أجـل أن لا ينكسـر قلب شـقيقتها أتقنت سـرد قصة خيالية عـن حياتها مع طونـي في إيطاليا وأنهـا عـادت فقط بعد أن فقـد حياته ضابطا في الجيـش مدافعا عن أرض بلاده وكرامة شعبه. لم تخلع ثياب الحداد على طوني إلا بعد إلحاح من إيلينا التي أرادت أن تمحو أحزان أختها الصغيرة.

- أين كامل؟

كان هذا سـؤالها لليفـون الذي اسـتتبعه دعوة العشـاء و مفاجأة الوجيه كامل عارف بعودة الجميلة ديمتريا من مهجرها.

أسبوع ولقاءان في جروبي انتهيا بزواج كامل وديمتريا.

حركـت ديمتريا وضعية رأسـها على صـدر كامل لتريـح رقبتها ثم أغلقت عينيها وابتسـمت ونامت وذهنها به إحسـاس طمأنينة أن جسـدها لأول مرة يعمل لصالحهـا ويعطيها تحكمًا مطلقًا وسـيادة رجل ستتأكد بشتى الطرق من أنه سيغدو محل رسو دائم لها.



26

لا تستطيع نـوال أن تفسر كيـف لفعـل بسـيط أن يكـون مفعما بهـذا الكم من المشـاعر؛ كل صبـاح حين تصفف شـعر ابنتها وهي تسـتعد للنزول إلى المدرسـة تجيش بها الأحاسـيس وتشعر بعينيها علـى وشـك إدرار الدمـوع. ولكن هكـذا كان تعلقها بدريـة ابنتها؛ لا مبالغة أن دنياها وما عانته فيها جعلتها لها كل الحياة. لم تعد درية صغيـرة بل هـي فتاة يافعة مكتملة الأنوثة أتمت خمسـة عشـر ربيعا وغدت وردة تزين عيشـة نوال التي لا أخضر ولا متورد فيها سواها. احتفظت الأم بحق تصفيف شـعر الابنة يوميـا على الرغم من قرب حصولهـا علـى البكالوريا. كل يوم تختار كيف تجدل الشـعر، فيوم تجعلـه ضفيرتين، وآخر ضفيرة واحدة تتدلـى على كتفها في دلال. حين تنتهي تضع يديها على كتفي صغيرتها لتلفها وتتملى في وجهها الصبـوح التـي تراه آيـة في الجمال، وتطبـع عليه قبلة قبـل أن تغادر الفتاة البيت لتستقل أتوبيس المير دي ديو. في ذهنها خاطر أن ابنتها لا تسـتكمل مسيرتها في المدرسة، بل تعيد لف شريط لعلها تصيب حظوظـا كادت الأم تملكهـا وفقدتها في خضـم حياة فرضت عليها

تغييرًا في اتجاهات لم تتوقعها. درية الصغيرة تسير على نهج أمها؛ متفوقة في دراستها ومثال للتهذيب، تفخر بها الأم ماري كلير مديرة المدرسة فخرها بوالدتها حين كانت تلميذة بالمدرسة . وتماما مثل أمها تعد وقريناتها من طبقة مصر المتوسطة همزة الوصل بالمدرسة بين بنات الأرستقراطية وأيتام الملاجئ. لعل المعركتين اللتين كسبتهما نوال في حياتها كانتا تسمية ابنتها على اسم زميلة بعثتها وأيقونتها درية شفيق، وتلا ذلك نجاحها في إلحاقها بالمير دي ديو برغم معارضة أب لم يرَ أي داع لمصروف زائد في تعليم فتاة ودفع نفس دفوع جدته حين أرادت أن تثني حامد عن إرسال آمال لتلك المدرسة.

بعد أن نزلت درية، توجهت نوال إلى صومعتها الصغيرة حيث تختلي مع رسوماتها. قبل أن تجلس إلى لوحتها شغلت أسطوانة لأم كلثوم لتكون خلفية لانغماسها في شغفها المستقر في احتلاله للمرتبة الثانية في حياتها بعد ابنتها. كانت قد أنهت خطوط رسمتها بأمسها فأمسكت بأقلام الرصاص ذات السماكة لتبدأ ملء ما بين الخطوطَ بالظلال المتباينة بدرجات الأسود والرمادي.

لم تهنأ كثيرا في جلستها ولا رسمتها إذ جاء صوت زاعق من أقصى حجرات المنزل:

- الإفطار.

وهي منغمسة ومنجذبة في رسمها ردت:

- حاضر.

ما بين شـدو أم كلثوم واسـتغراقها في رماديات رسـمها لـم تلـحظ آمـال صوت الخطوات الثقيلة المتجهة صوبها لتفاجأ بزوجِها واقفًا خلفها غاضبًا:

- ألم أطلب إفطارا.. أم رسوماتك التافهة أهم؟

لـم يعطهـا فرصـة رد إذ اندفـع كوحـش كاسـر نحوها فأمسـك رسـمتها يمزقهـا ومـن بعدها دار إلـى باقي الرسـومات يقطعها إربا وقصاصَـات صغيـرة الواحـدة تلو الأخـرى وفي وسـط غضبته كاد يحطـم الجرامفون. صدمتها جعلتها تتجمد مكانها قبل أن تنطق في حسرة:

- حرام عليك.. حرام عليك..

- مللت منك ومن رسوماتك.

قالهـا كامل وهو يسـتدير مواجهـا إياها ويده تنـزل على وجهها بصفعة مهولة. توقف الزمن لحظة وصدى الصفعة يملأ الفراغ الذي بينهمـا. أخذ كامل نفسـا عميقا به راحة أنه أعـاد إذلالها وكأنه ينفث عن مجمل عقده نحوها. نظر إليها وعينيه تكادان تنطقان

- أريني كيف تفيدك السوربون الآن؟

مزهوا بما أصابها استدار وانصرف تاركا نوال تلملم ما تبقى من كرامتها. لم تكن أول مرة يمد يده عليها منذ زواجهما ولكنها لم تستطع تذكر مهانة صفعة على الوجه في تاريخهما معا.

شريط حياتها مع كامل يعيد نفسه أمام عينيها فيبدأ بيوم بشَّرتها جدتها منتشية بقرار وليي أمرها من بعد أبيها بزواجها من كامل حتى يظل زيت العائلة في دقيقها. فرمان لم يسمح لها سوى بالانصياع له، وكيف لبنات العوائل أن يعارضن حكمة كبارهن وأنى لليتيمة بمناصر لها لو أرادت اعتراضا؛ فسندها وُري الثرى وأصبح زمام أمورها في يد جدة وعم يريان أنها خالفت التقاليد ما فيه الكفاية بتشجيع والد لم يقنعهما يوما بأفكاره وتوجهاته في تربية ابنته. أدركت أن كلام جدتها عما فيه مصلحتها إنما هو تقديم لمصلحة ابن عمها المنفلت وتأمين له من مستقبل لا بد وأنه غير آمن بما فيه من جموح وشطط أدى إلى ما رجعت فوجدته هو وأباه به من غمة.

منذ يوم الزفاف أدركت أنها لن تكون في زيجة كالتي تحلم بها كل فتاة؛ مع زوج يرعاها ويسبر غورها، يلفها ويحميها حماية الوليف لرفيقته. في لحظات خلوتهما كانت مؤاتاتها واجبًا أصر على أن يشعرها أنه ثقيل عليه وأنه يؤديه فقط استجابة للأعراف. وحتى هذا الواجب أصبح ذكرى من بعد مولد درية، فلم يعد كامل

فيما يبدو محتاجا إلى أن يثبت سلامة ذكورته معها. لم تُلقِ بالا لذلك وظلت السنوات الأولى راجية أن يصبحا كزوجين يتشاركان الحياة حتى لو كانت شراكة المخدع قد فضت بينهما، ولكن هذا لم يكن لا في أولويات ولا على قائمة اهتمامات من أسموه زوجها في أي لحظة. مع الوقت استسلمت لرغبته في ألا تكونَ بينهما علاقة سوية وأن يخلي تعاملاتهما معا من أدنى كم من المشاعر، ولو تلك التي تمليها عيشتهما معا تحت سقف واحد. اغتال من البداية أي محاولات من جانبها لتوجيه مشاعرها نحوه، تارة بلفظه إياها والأخرى بإصراره على جرح أنوثتها إما بتجاهل أو بنزوات لم تخفَ عليها أنه يمارسها تكرارا. الفشل نتيجة دائمة لمحاولة العثور على ذكرى حلوة تجمعها معه وكأنه تمكن من أن تكون ذكرياتها معه هي اللا ذكريات بعد أن حجبت طوعا وتعايشا رصيد الآلام الذي ملأه بسوء معاملتها.

تتذكر أول مرة مد يده عليها حين جرت على جدتها دامعة فردتها:

- لا بد وأنك استفززتيه.. العيب عليك لا عليه.

حين تكرر ضربه اختارت بهيجة لتشكوه إليها فاحتضنتها بنت عمها قائلة:

- كامل طيب ولا يقصد.. تحملي من أجل درية.

أصبحت لا تشكو وقررت أن تتحمل في صمت من أجل درية ولأنها أدركت أنها بنت مجتمع سيلومها إن صرخت رافضة وسيصمها بالذنب وسيجعل ثمن الذنب مقسطا تدفع منه جزءا ويظل الباقي يظلل حياة ابنتها. اختارت سكوتا كي لا تنتهي ابنتها وهي تحمل لقب ابنة المطلقة التي حطمت الأعراف والتي لا بد أن بها إرث نشوز من أمها.

تحسست وجهها حيث صفعها فجال بذهنها شبح درية شفيق؛ أكانت تسكت على مثل هذا؟ أبدا؛ فصديقتها لم تخف أو تخش لوم أن تنفصل عمن تصدرت صفحات الأهرام خبر خطبتها إليه، وحين تزوجت فعلت ذلك في باريس من رجل يصغرها وباختيارها دون أن تخبر أهلها، حتى عادت بالدكتوراه وزوّج كلًّا في يد. درية لم يستطع أحد أن يكسر نفسها العزيزة ونوال تعرف كم هي رقيقة بدواخلها فلم يستطع مدير الجامعة أن يكسرها حين حطم حلمها بالتدريس لأن جمالها - كما قال لها - زيادة عن الحد المقبول، وأنه لا يستطيع أن يعرض طلاب الجامعة لمثل هذه الأنوثة الطاغية. لم تركع درية بل استمرت تحارب من أجل ما تعتقد وها هي رئيسة تحرير مجلة «المرأة الجديدة» وإحدى زعيمات الحركة النسائية في مصر. ما زالت درية موضع إعجاب وغيرة نوال؛ تتمنى لو بها قوتها وتحلم بيوم تأخذ ناصية مصيرها بيدها.

أي قهر هذا الذي عاشته؛ وحيدة في شكواها لا إنفاذ لأي رغبة تمنتها. أتبكي أم تضحك من سذاجتها يوم جرت على جدتها وبيدها خطاب وزارة المعارف بترشيحها مدرسة بمدرسة السنية، ليأتيها الرد بنصف ابتسامة تحمل كثيرًا من التهوين ومثقلة بالتهكم:

- كفى جنونا لا ينقصنا إلا أن تصبحي موظفة.

يعاودها أثر لكزته العنيفة في كتفها يوم استأذنته في قبول عرض أن تصبح معلمة بمدرسة التربية الفنية. بهيجة هي التي كانت قد أصرت على أن تصحبها إلى درس ديني بمنزل لبيبة أحمد رئيسة الأخوات المسلمات. يومها تجولت نوال في المنزل وهي تبحث عن حمام لتجد نفسها في حجرة مكتظة بلوحات ومنحوتات. اندهشت أن يكون بهذا المنزل بالذات هذا الكم من التماثيل والتي قد يصفها بعض أتباع صاحبة البيت بأنها أصنام. نسيت حلقة الدرس التي بالصالة وظلت تتفحص الفن وتتجول بين الروائع التي تكدست بها الغرفة قبل أن تلتقي مبدعته: زينب عبده[11]. توطدت الصلة بينها وزينب سريعًا وهما الاثنتان شغفهما الفني يكاد يتلامس حتى واتتها الشجاعة أن تعرض عليها أعمالها.

---

(11) السيدة زينب عبده هي ابنة لبيبة أحمد أور رئيسة للأخوات المسلمات حين أسند لها حسن البنا ذلك المنصب عام 1914م. وقد درست زينب عبده فن الرسم والنحت بإنجلترا وعادت إلى مصر عام 1926م، وهي مؤسسة مدرسة التربية الفنية (التي أصبحت كلية الآن) بالإضافة إلى كونها إحدى رسامات مصر المشهورات في الأربعينيات من القرن الماضي.

- حرام تدفني موهبتك يا نوال.

قالتها لها ابنة رئيسة الأخوات التي حصلت على شهادتها في الرسم والنحت من جامعات إنجلترا. ثم ما لبثت أن عادت زينب عبده تعرض عليها:

- تعالي اعملي معي بمدرسة التربية الفنية.

يومها استبشرت بأنها على وشك أن تشبع رغبتها بتحقيق ذاتها وإشباع شغفها في آن واحد. تصورت أن الأجواء مواتية لأن يحوز طلبها قبولًا؛ فبهيجة أخته سبب المعرفة وخلفية من تعرض عليها لا غبار عليها بل لعلهم مثل يحتذى؛ فأمها لا تكتفي بورعها ولا تقصره على نفسها بل تنشره بين أتباعها. بسذاجة وعشم كبيرين اندفعت تحكي له آملة أن تلينه مقدمة أحسنت فيها وصف مميزات ما تصبو أن تنال موافقته عليه. وكأنه أراد أن يطفئ جذوتها ما تبقى لها من عمر؛ لم يرفض طلبها قولا فقط، بل زادها بلكزة بالغة عنيفة أراد بها أن يذكرها ألا تجنح من بعدها في طلب وأمعن في إهانتها والتهكم على تطلعاتها:

- ناقص تلبسي طربوش وتطلقي شاربك ... سيليق بك!

حاولت من جديد تَذكُّر مطلب واحد لها استجابوا له أو تقبلوه فأعياها التفكير وتغلبت أحاسيس الفشل: فشل مملوء بقهر من عزفوا عن سماع صوته فظل صراخا بداخلها.

أصبحت كالملاكم الذي أشبعه خصمه ضربا وأسال دماءه فرفع يديه يحاول يائسا أن يحمي ما تبقى دون أن يُدمى وجهه من توالي الضربات. اختارت من البداية ألا ترد اللطمات بل فقط تستمر في أن تتلقاها آملة أن يكل ويتعب الطرف الآخر يوما ليبدأ من بعد ذلك الألم يخبو راهنت على وقت يمل خصمها ويتركها كمًّا مهملًا مثلما خططوا واختاروا وأرادوا لها . هاجرت إلى وحشة بداخلها استأنست فيها بذكريات شاحبة لما كان ممكنا أن يكون، وحفظت ما تبقى بها من عزم وطاقة ومشاعر توجههما بلا أدنى محدودية لوحيدتها وهي تصبر نفسها بأن يوما ما ستحقق درية الصغيرة كل ما فاتها هي الوصول إليه. اختارت أن تقبل قهرًا ووحشة تحملتهما وهي ترى في آخر الدرب ابنتها متلألئة ساطعة تملأ حياتهما هما الاثنتان طولا وعرضا وكأنها اختارت طوعا أن تعيش درية حياتين إحداهما عوضا عما فات أمها.

بكل ما تبقى بها من قوة أرادت أن تواري بذهنها ذكريات ألمها وتعاستها مع كامل، فقط لتجد أثر الصفعة على وجهها مستمرا وكأنه صدعه فاستمرت تحكه بيديها آملة أن يزول الألم؛ وإن كانت مدركة أن الشرخ الذي تستشري وتنتشر شقوقه بداخلها أبدا سوف يستديم. بدأت تلملم الرسومات التي هلهلها كامل وبها أمل أن تجد ولو جزءًا من بواقي بواقيها دون عدوان. في لحظات كان قد أتى بوحشية هجومه على مشوار عمرها الذي اختارت في صمت أن تعبر به عما بها من شجن ففقدت قصة حياتها توثيقها.

تذكرت أن بالدرج رسمة تمنت ألا يكون قد طالها إعصار التدمير، ففتحت بيد مرتعشة غير واثقة تستكشف في هلع مرعوبة من ألا تجد ضالتها ؛ لتجد ورقة اصفرت مع الزمن: الرسمة التي أهداها لها كلود يوم افترقا.

امتلأت الحجرة بصوت أم كلثوم مهزوزا من الجرامفون نصف المحطم:

يااللي انحرمت الحنان من قلب رائف رحيم

حكم عليك الزمان تقضي عمرك يتيم

مين اللي كان حقه يضمك من كتر حبه ويفرح بك

إلا اللي لما يشوف رسمك يلاقي صورته بتنطق فيك

يتيم وابوك موجود هاجرك وجافيني

نايم والاغيك وعنيه فيك

أقول لروحي وذنبك إيه تقاسي يتمك من بدري

ويجي يوم تسألني عليه ما اقدرشي أحكي لك أمري

نايم والاغيك وعنيه فيك

الدمع ينزل على خدي واقول ياريتني ويا ربي

فضلت في الدنيا لوحدي من غير ما اسلم في قلبي(12)

(12) من أغاني فيلم فاطمة - كلمات أحمد رامي، تلحين محمد القصبجي.

27

نزول الحاج عبد العليم الأهواني القاهرة له طقوس على رأسها زيارة الحسين. على مقهى الشيخ شعبان كما اعتاد جلس حلمي يشد أنفاس شيشته بعد أن تركه الحاج على المقهى وذهب يلقي التحية على عدة أصدقاء من تجار الخان على أن يلتقيا بالجامع وقت صلاة المغرب. أتته عن بعد أصوات منشدي الحضرة وعلى خلفيتها زغاريد النسوة وهم يستعدون لليلة الجمعة:

«صلي يا باري.. على المختار وعليّ الكرار.. وآله الأطهارِ في ليلة هجرته.. نام ببردته بروح الفدية.. خدع الكفارِ قال النبي.. لابنه العربي أخي عليّ.. في هذا الدارِ قال المؤيد.. بالسند الجيد يا عربي شيد..............»

ما زال قلبه تواقا للصوفية وشغفه ككل أهل مصر بأهل البيت لم يفتر يوما، فلم يمل من انتظار أبيه بل استمتع بجو الحسين المملوء روحانية والباعث على السعادة. انتبه فجأة للواقف أمامه يناديه:

- حلمي.

حين نظر صوبه ومض في ذهنه قرار الجماعة قبل عدة أشهر حين قرأه مشدوها:

«إعفاء كل من الأستاذ محمد عبد السميع الغنيمي أفندي والأستاذ سالم غيث أفندي والأستاذ أحمد السكري أفندي من عضوية الجماعة، لما تعرفه الهيئة من تصرفات الأستاذ أحمد السكري ونكوثه بالعهد»[13].

كان الواقف أمامه هو أحمد السكري الذي لم يحاول حلمي أن يتصل به من يوم لفظه الإخوان. قام من فوره واحتضنه بل اعتصره وكأنه يكفر عن تقصيره في حق صديقه.

- لي حق عندك يا حلمي؛ ألا تطمئن عليَّ طوال هذه المدة؟

لم يجد حلمي ردًّا وهو يعلم تقصيره فما كان منه إلا أن احتضن السكري من جديد.

- أنت تعرفني جيدا يا حلمي وأنا لا أنقض ولا أخون عهدا..

- أعرف وأشهد يا أحمد.. غمة وتزول إن شاء الله وتعود قريبا.

- لا عودة يا حلمي ولا أريدها.. لن أؤلف أسبابا ولكني فقط سأقول لك إن رؤيا لي قد صدقت: حلمت أني والبنا بمركب وإذا به يثقب بعيدا عن الشاطئ فأقفز منه وأصل للأمان ويستمر هو به في اتجاه اليم المضطرب[14].. خذ بالك من نفسك يا حلمي؛ أنا من أدخلك الإخوان وأنا الآن من يحذرك من طريقهم.

---

(13) قرار رسمي اتخذته الإخوان المسلمين بفصل السكري وآخرين من عضويتها لخلافات مع حسن البنا.

(14) قصة الرؤيا روتها ابنة أخت أحمد السكري.

لم يطل حديثهما فودعا بعضهما على وعد اتصال ولقاء، وتوجه حلمي صوب الجامع للقاء الحاج عبد العليم.

حين انتهيا من صلاة العشاء، وبمعرفته بطقوس زيارة والده، انتحى حلمي يسند ظهرة على عمود رخام في انتظار درس الشيخ سعفان صديق وحبيب أبيه. من وسط المنتظرين وبعد أن أنهى تسبيحه قام سعفان وبدأ درسه:

درسنا اليوم سيكون عن قساة القلب وكيف أن هؤلاء أنذرنا منهم الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم، فقسوة القلب من أضداد الإسلام ولينه من أعمدته. وهي ذنب عظيم جدًّا لا ينتبه له كثير من الناس مع أن أكبر ما يريد الله منك هو هذا القلب السليم. قال تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

فالله سبحانه وتعالى يقابل بين «من شرح صدره للإسلام» و«القاسية قلوبهم» فهما ضدان، وعلى هذا يكون «لين القلوب» من خصال الإسلام القرآنية؛ وقسوة القلوب أعقبها الله بالويل، مما يدل على أنها جريمة تستحق العقاب. والقلب هو ملك الجوارح وآمرها وناهيها، يقول تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾.

إن الذكر غاية من غايات القرآن بل إن صلواتنا إحدى وسائل الذ
﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾، فالذكـر تذكـر، أي أن تتذكر الله، أن
يكون في قلبك، وأما الذكر اللفظي فما هو إلا مظهر من مظاهر الذ
القلبي، فأصل الذكر في القلب، وهو ما يمنع القسوة. أما الذكر اللفظي
فلا يمنع القسـوة، بل نجد أن أكثر الناس اهتمامًا بالذكر اللفظي هم
من قساة القلوب. ومن أسباب قسوة القلوب، نقض المواثيق كما في
قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ
يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ
وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾.

احـذروا يا أحباب قسـاة القلـوب وأخطرهم عليكـم من يغلف
قسـوة قلبه بظاهـر التقى ولباس الأخيار فهؤلاء أذناب الشـيطان في
أرضنـا فلا تتبعوهم فهم ضالون مضلـون ناقضون للعهد لا يريدون
إلا علوا في الدنيا وإن أنكروا. واعلموا أن الإسلام دين لين ورحمة
وأن منتهى أملنا أن يصيبنا أقل القليل من رحمة المولى التي وسعت
كل شيء والتي هي مثلها مثل كل صفاته سبحانه وتعالى، ما لا عين
رأت ولا نفس تخيلت.

لن أطيل عليكم، فقط أذكركم بأن لين القلوب من أصول الإسلام
وأن الحبيـب محمدًا صلى الله عليه وسـلم رحمـة للعالمين وليس
للمسـلمين فقط، فارفقـوا وارحموا بكل من حولكـم، فالله رحمن

رحيم، والمؤمن عليه أن يتأسى بذلك وألا يكون لا من قريب ولا من بعيد سبب قسوة، بل وسيلة رحمة ولين.

اذكروا الله الرحمن الرحيم يذكركم وأكثروا من الصلاة على نبينا حبيبنا شفيعنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم.

آن وقت الذهاب إلى حارة اليهود لتلبية دعوة بنيامين فأخذ حلمي يساعد والده معاونا إياه أن يقوم وهو يلحظ كم الارتياح المعتلي وجهه من إثر درس الشيخ صديقه الذي جاءه معانقا قبل أن يغادرا. تحرج الحاج عبد العليم أنهما مغادران قبل صلاة العشاء فوعد الشيخ سعفان لقاء أكيدًا بغده. لعل آخر نفحات الحسين كانت أبياتًا من البردة ودعهم بها أحد مقيمي الحضرة من الواقفين أمام الجامع:

يا نفس لا تقنطي من ذلة عظمت   إن الكبائر في الغفران كاللممِ

لعل رحمةَ ربي حين يقسمها   تأتي على حسب العصيان في القسَمِ

استقبالهم في حارة اليهود أقل وصف له أنه ملوكي، فقد وقف إفراييم وبنيامين أمام البيت ومعهما كل معازيمهما في انتظار الحاج عبد العليم وابنه حلمي. هذا كان قدر الأهواني الكبير عندهم؛ فهو كبيرهم في الإسماعيلية والعلاقة معه متجذرة منذ سنين نسوا عددها. كانت أجواء احتفالية بلوغ دانيال كأجواء الأعياد؛ نكهتها مزيج لا يوجد إلا في مصر التي تتفرد بقدرة على مزج احتفال يهودي بنفحات تمصره فيكون الناتج خليطًا من فلكلور عجيب

لا يتذوقه ولا يعرف سره إلا أهل البلد. الرجال متأنقون والسيدات في أبهى ثيابهن والأطفال يجرون ما بين هولاء وأولئك في الصخب الذي يصاحب الاحتفاليات. حين ظهر الحاج عبد العليم على الناصية أسرع اليه إفراييم وابنه مرحبين وأمسك اليهودي العجوز بيد صاحبه يقوده إلى المنزل ويصر على أن يجلسه على الكرسي المتصدر لحجرة المسافرين قبل أن يتتابع الحضور في الولوج لتحية ضيف الشرف الواحد تلو الآخر. حين بدأ الجميع في أخذ أماكنهم مد الحاج الأهواني يده داخل صِداره وأخرج كيسًا من القطيفة الزرقاء، وأشار لبنيامين أن يأتيه. حين اقترب منه سأله:

- أين المحروس دانيال؟

التفت بنيامين فلم يجد دانيال فتلعثم:

- أكيد نزل الشارع مع أصدقائه.. . ثوانٍ لأناديه يا حاج.

- اتركه يا بنيامين.. دعه يلعب.. هذا يومه.. هذا الجنيه الذهب هديته..

ثم قهقه قائلًا:

- إياك تحتفظ به لنفسك يا ولد يا بنيامين.

لم يسمع الحاج رد أبي دانيال إذ غطى دوي انفجار شديد كل الأصوات وهو يهز أركان المنزل ثم تبعته انفجارات متتابعة جعلت الجميع ينتفضون من أماكنهم، وينطلقون صوب الخارج ليستطلعوا ما يحدث.

كان حلمـي من أوائل من وصلوا إلى الشـارع فوجد دخانًا كثيفًا يندفع من جميع أنحاء حارة اليهود مع وميض حرائق مشتعلة وألسنة لهـب ممسـكة في البيوت هنا وهنـاك تنير بلهبها مواقـع انهيارين أو ثلاثـة لأبنية كانـت لتوها واقفـة كالأوتـاد. علت صرخات النسـوة وصيحات الرجال المسـتنجدة وامتزجت الأجواء بخليط من دخان ممزوج بروائح بارود ظل مغيما فوق المنطقة مفتقدا لريح تبعده في مساء اليوم الصيفي شديد الحرارة.

عـن قرب منـه وجد حلمي جسـدًا ملقًى يتأوه ويتألـم مكثرا من التلوي فأسـرع إليه ليجـد أنه دانيال وقد أخذت قدمـه اليمنى تنزف بغزارة. سـرعان ما تجمع حوله هو والمصاب كل من كانوا جلوسـا معهـم قبـل الانفجارات. برفق شـديد بدأ حلمـي وبنيامين يحركان الفتـى المصـاب وهمـا يحـاولان ألا يتسـببا فـي زيـادة آلامـه. من خلفهمـا كانت زوجة بنياميـن تخطو نحوهما بخطـى مترددة خائفة أن يكون الدم السـائل من وليـد رحمها. حين أمعن حلمي النظر في قدم دانيال وجدها تكاد تكون قد انفصلت عن ساقه فلم يعد يربطها بجسده سوى جلد بعد أن حطمت الشظية التي أصابته عظام مفصله وما زال الدم خارجًا منها كالنافورة دون إشـارة لتوقف قريب. حين اقتربت أم الولد منهما وشـهدت ما أصاب ابنها ما اسـتطاعت إلا أن تطلق صرخة المكلومة ثم تهاوت لتسـقط هي الأخرى ليشج رأسها الرصيف التي ارتطمت به في سقطتها.

استعرت النيران من أثر التفجيرات عن يمينهم ويسارهم وتكونت التجمعات على الأرصفة حول من تساقط من المصابين. تعالت صيحات الجزع والهلع من كل أجناب الحي. حالة من الفوضى والتزاحم سادت المكان بين هرولة البعض في اتجاهات متضادة وتجمع آخرين بنية المساعدة قدر إمكانهم.

- احمله معي يا بنيامين.

ثم بدأ حلمي يمد إحدى يديه تحت إبط دانيال والأخرى تحت ركبته ومن أمامه أبو المصاب والتقت نظرتهما قبل أن يرفعا المصاب ويبدآن في الاتجاه صوب سيارة حلمي. ما إن وضعا المصاب على المقعد الخلفي للسيارة حتى أسرع حلمي إلى مقعد السائق وأدار المحرك وبدأ يقودها في اتجاه المستشفى الأهلي قرب باب الحديد.

سيطر على حلمي هاجس لم يستطع صرفه طوال الطريق: ذلك الرجل شبيه الأخ عوني الذي رآه يغادر حارة اليهود في عجالة بعد الانفجارات مباشرة وإن أسره وجه أبيه الشاحب وعيون عبد العليم التي دمعت وهو يرى الدماء التي أسالها الانفجار. كان يعلم مدى ألم أبيه الذي شاخ وهرم وإن ظلت إنسانيته فتية.

- اطمئن يا إفراييم؛ دانيال بخير إن شاء الله.. الله يلعن الأبالسة ممن كانوا السبب.

هكذا همس الحاج عبد العليم بصوت مملوء أسى أقرب لأنين قلبه الحزين في أذن صديقه اليهودي العجوز.

28

«اخلصي منه».

كلمتـان رماهمـا كامل قبل أن يغـادر ديمتريا بعـد أن أبعدها من على صدره حيث اعتادت إلقاء رأسـها وقت انتهائهما من ممارسـة حبهمـا. تكورت ديمتريا في سـريرها فاقتربـت ركبتاها من صدرها وهـي تحاول أن تقـاوم الآلام التي ببطنها. لديها رغبـة في أن تبكي ولكنهـا أحكمـت حبـس دموعهـا منـذ يـوم نقلهـا فتـى القمصـان السـوداء إلـى البيت المغلق الـذي أوصد أبوابه عليها سنين؛ يومها قـررت أن الدمـوع لا طائـل منها وأنهـا لن تضعف فتبكـي من بعد. رفعـت عينها إلـى المنضـدة المجاورة لسـريرها فاندفعـت الدموع إلـى مقلتيها وإن توقفـت على أعتاب جفنيها فلـم تنزل. نظرت إلى مـا تركه كامل قبـل أن يغادر؛ رزمة من عشـرات الجنيهـات ملفوفة على نفسها وبجوارها على بعد شبر أو أقل ورقة فئة خمسة جنيهات مفرودة وحدها. العشرات لتنفيذ تعليماته بالخلاص والخمسة التي علـى بعد منها مصروفها للأسـبوع. نظرت للمصـروف بحزن وهي تتذكـر كم من مرة ألقى رجل قبـل أن يترك مخدعها بورقة مالية وإن

اختلفت تسمياتها: هدية أو نفحة أو أجرة، وأخيرا مصروف. ما زال الألم في بطنها ملحًّا لا يبغي مبارحتها وهي مسيطر عليها أنها حتى وبعد أن أصبحت متزوجة ما زالت تتكسب من نفس نوعية الخدمة وللمهارات ذاتها التي اعتادت تقديمها محترفة. تسارع فتفاوض نفسها أنه لا داعي للقسوة فما هي الآن إلا زوجة مثل أي زوجة يعطيها زوجها مصروفا. تتحسس بيدها موضع آلامها لعلها تصرفها دون جدوى، فترفع يدها تتحسس صدرها فتشعر بانتفاخ نهديها على غير اعتياد وحساسية مفرطة بحلمتيها وكأنهما مشدودتان بأوتاد. تئن لا من شدة الألم، بل من إحساس عدم ارتياح يغلفها؛ متعبة وجسدها مكسر، مهيضة لا مريضة. في لحظة يتوارى ويتخفى الألم خلف شعور ببواقي ما في معدتها صاعد بقوة إلى جوفها فلا تستطيع أن تسيطر على غثيان يتملكها فتهرع إلى الحمام لتستفرغ في حوضه عصارة معدتها. تغسل وجهها وتبلل شعرها الذهبي آملة في استفاقة تصر على أن تجافيها فتقرر أنها لا تريد وحدة في حالتها تلك، وتبدأ في الاستعداد للذهاب إلى إيلينا والبيت الوحيد الذي لم يوصد أبوابه في وجهها يومًا.

- أنا حامل يا إيلينا.

تحتضنها أختها أو بالأحرى تعتصرها ودموع الفرحة تنساب على وجهها. أختها الصغيرة أصابت ما ظلت تحاول وتصلي من

جل أن يكـون نصيبهـا. لم يكـن لإيلينا رجـاء في دنياهـا إلا طفل ونس وحدتها ويكمل عناصـر زواجها من ليڤون، ولكن قرر القدر التواطؤ مع جسدها أن يحول الحلم إلى مستحيل لا أمل في مناله. كل مشـاعر الحرمـان تتبخـر وهـي تسـمع الخبـر الـذي حملته لها ديمتريا؛ ستوجه كل ما بها من أمومة مدفونة إلى ابن أختها وستسعد به بديلا عما أبى رحمها أن ينتجه.

تعيدها ديمتريا من أرض الأحلام بصاعقة:

- كامل يريد أن أجهض !

يبيض وجه إيلينا من مباغتة تصريح ديمتريا؛ لا تتصور أن يرفس أحد نعمة يلهث ويشقى من أجلها آخرون:

- مجنون.. لا تسمعي له.

يتدخل ليڤون:

- سيتخلص منك ومنه إن عاندتيه. كامل لا قلب له.

ديمتريـا تعلـم أن ليڤـون علـى حـق وإن زاد مـا قاله إحساسـها بالرخـص. تـدرك أنهـا مجرد بضاعـة سـيتخلص منها مشـتريها إن لـم تطاوعه؛ لـن ينتظر إيجاد بديـل ولن يضعف قلبه القاسـي، فقط سيرميها ومعها ما بذره في رحمها.

- لا تنسي أن ذلك شرطه من قبل زواجكما.

مباشـرة ليڤون تزيد الألـم ولكنه يقـرر واقعًا ويذكرها بما ارتضته كشـرط ترجمتـه وتفسـيره اللـذان تجاهلتهما أنها فقط وسـيلة متعة لا حـق لها في محاولة أن تكون جزءًا مـن زيجة مكتملة الأركان أو أن تتطلع لثمرة من هذا الارتباط سـوى أن تكون خليلة سرير ومطية لتحقيق متعة ارتأى أن يشتريها. تغمض عينيها لتهرب من حقيقة أنها لا قيمـة لها وأنها محكوم عليها أن تمر في هذه الحياة هكذا. يجول بخاطرها طيف مرعب مملوء بوحشـة ووحـدة حين يمد الزمن يده ويسرق ما تبقى من جمالها ونضارتها. تحاول الهروب من كوابيس مسـتقبلها فتتحسس بطنها متذكرة سـكاكين الآلام التي أصابتها أيام بداياتها في البيت المغلق. أفقدوها براءة جسدها ولـم يراعوا سذاجة المراهقـة التـي تسـكنها. عـزت آلامهـا لكثـرة الممارسـة وتكالب الرجال على فراشـها حتى فوجئت بنفسـها تفرز من داخل جسـدها ما اشـتبه عليها أنه عروس لعبة مدهون بقرمزيـة دمائها. لم تدرِ ماذا تفعل حتى حرَّكتها بواقي طفولة نسوا وأدها وهِم يغتصبون براءتها، فداست على زر تنظيف المرحاض ليبتلع الدمية فرز رحمها طوفان ماء مصغر. غاصت في مقعدها وألقت برأسها على كتف إيلينا وهي مـا زالت تتحسـس بطنهـا برفق وتـؤدة وبها جـزع أن تؤرق سـاكن رحمها. أحسـت بـه وأدركت أن السـماء تعلـن لها أنها سـامحتها، وعربون الغفران أنها سـتعيد معها الكرة مـن جديد. عزمت ديمتريا علـى ألا تتصـرف بطفولية هذه المـرة وأنها سـتحنو وتضـم الفرصة الثانية التي أتيحت لها وتحميها بكل ما أوتيت. إجابة تخوفها من يوم

يغادرهـا جمالها كمنت في رحمها في انتظـار الخروج منه لتحميها وتوالفها في أيام مستقبل تخشاه. لن تضيع هذه المرة الشيء الوحيد الذي ستستطيع يوما أن تقول إنه لها .لا كامل ولا غيره ولا أي قوة سيجبرونها على التخلي عن جنينها؛ وإن حاولوا فسيرون شراسة كل سنين ضنكها تحصدهم. استمرت في تربيت بطنها بحنو تطمئن مـن بداخله غالبـا على أمل أن يستطيع ملئها حبا ودفئا حين يشـعر بالأمان. على خدها تسيل دمعة وحيدة لم تستطع كبتها وببالها أن الحاضر بدا أجمل كثيرا في الماضي.

ليڤون ساكت وهو يشاهد زوجته وأختها تتألمـان من وضعية المفروض أن تنضح بهجة وفرحًا. حين يرى أنهما تستطيعان هضم واقعيته يبدأ في شرح ما يخطط له:

- كامـل لا قلـب له ولن ينفع معه استجداء. حقـك وحق ابنك يـا ديمتريا وقبلهما حقوقي عنده لا حل سـوى أن ننتزعها منه بعافية وشراسة لأنه سيتعامل بقسوة ودون اكتراث إن أتحنا له الفرصة.

نظـرات اليونانيتـان أمامـه توحيـان للأرمنـي أنهمـا متفقتان مع مـا وصـل إليـه وإن جهلتـا مـا يرمي إليـه. يعود يشـرح لهمـا مرماه ومقصده:

- لا بـد وأن نحايلـه.. أتذكريـن يـا إيلينا حين كنت أخسـر لمن يقامـرون معـي حتـى أزيد مكاسـبي فـي النهايـة؛ حان وقـت جني أرباحي من كامل ومعها حق ديمتريا ومن في بطنها.

أسبوع مضى قبل أن تتصل ديمتريا بكامل وصوتها يغطيه الدلال:

- نفذت أوامرك حبيبي.. منتظراك تصالحني في سهرة اليوم عند ليڤون وإيلينا.

لم تتوقف سهرات الصلح عند تلك الليلة، بل توالت متتابعة وحتى تشقشق أشعة شمس الفجر من بين طيات ظلام الليل. لم يعد دافع حضور كامل اليومي مصالحة مع ديمتريا بل محاولات مستمرة لكسر سيل الخسارة في مقامرته مع ليڤون. لم يكن حافز كامل حجم الخسائر الجسيمة ولا قيمة المديونية التي تعدت عشرات الآلاف ولكن بالأكثر والأهم له ألا يكون خاسرًا وبالذات لليڤون. كل ليلة كان يبدأ اللعب متأكدا أن هذه ليلته التي سيدمر فيها خصمه وأن نجمه لا بد وأن يعود للعلا فيدحض من ظل طوال حياته يراه دونه. لم يستطع أن يعلي صوت العقل بأن كفى خسارة، بل اندفع في عنفوان يريد في المقام الأول لملمة كرامة بعثرها صديقه الأرمني بتوالي انتصاراته وأشعل بداخله قيظًا متأججًا ومرارة حمضية بسخرية من قدراته ودنو إمكانياته. آمن كامل أن الضربات المتوالية التي تلقاها سببها تخلٍّ وقتي عنه اختار فيه الحظ أن يغير مقعده ليجاور ليڤون ولا بد أنه عائد له ليشفي غليله فيسحق ويمحق ليڤون الذي اشرأب وتعدى على ترتيبه الطبيعي الذي طالما ارتضاه وراء كامل.

كانت الساعة قد قاربت على الرابعة صباحًا حين انتهى توزيع أوراق آخر أدوار بوكر هذه الليلة. حين نظر اللاعبان الآخران لأوراقهما سارعا بقذفها إلى منتصف الطاولة معلنين اكتفاءهما وانسحابهما لضعف الأوراق التي حظيا بها. تبقى كامل وليڤون وجها لوجه؛ ليڤون لم يفتح أوراقه مفضلا أن يتأكد من وضعية النظارة الداكنة على وجهه، في حين نظر كامل إلى أوراقه ومنع الارتياح من التسلل إلى قسماته حتى لا يفشي قوة ما بيده.

ببطء فتح ليڤون أوراقه ثم رفع رأسه متوجها لغريمه:

- رهانك؟

مد كامل يده إلى دفتر الكمبيالات القابع على المنضدة وأمسك بالقلم ليفاجأ بليڤون يسحب الدفتر من تحت يده:

- أنا اكتفيت كمبيالات.. ولا أظن أن أي مبلغ تكتبه بك قدرة على سداده.

امتعض وجه كامل وهو يشعر بالمهانة من تقليل ليڤون له:

- ومَن قال لك إنك لن تخسر هذا الدور أصلا.

- ما دمت واثقًا فلا داعي لكمبيالة.. سأراهن أنا بإحدى كمبيالاتك التي فزت بها الليلة مقابل الشيفروليه ديلوكس.. ما رأيك؟ أم إنه رهان لا تستطيعه؟

الغليـان غلـب كامل وهو يعيـد النظر إلى أوراقه مـرة أخيرة قبل أن يخرج مفاتيح سـيارته فيلقيها رهانا فـي حين رمى ليڤون بإهمال إحدى الكمبيالات.

تمعـن الأرمني فـي أوراقه ليجد أن بيده ورقتيـن من فئة القلوب وثلاث أوراق أخرى من فئات مختلفة. لم تكن لديه كروت متكررة؛ في عالم البوكر ورقه كان خاسرا بشدة وإصرار. لم يظهر عليه وجل وهو يطلب تغيير الأوراق الثلاث ويحتفظ بورقتي القلوب.

على الجانب الآخر استبشـر كامل أن خصمه يغير ثلاث ورقات وهـو الذي يضـم بين يديه ثلاثتين وسـبعتين وولـدًا. أدرك أن برجه على وشـك الدخول في فلـك الحظ من جديد؛ سيكسـر غرور مَن تحـداه ويعيد الأمور إلى نصابها من جديد. أسـرع برمي الولد طالبا اسـتبداله وهـو يأمل في سـبعة أخرى أو ثـلاث يكمل بهـا يد «فول هاوس»[15]

حيـن أمسـك كامل بالورقـة التي طلبهـا وجدها من فئة العشـرة ولكنه لم يبتئس أنه لم يحصل على مراده إذ كان موقنا أنه بالثلاثتين والسبعتين متفوق على غريمه الذي احتاج أن يغير ثلاث ورقات.

---

(15) فول هاوس في لعبة البوكر أن تتكون الورقات الخمس بيد اللاعب من ثلاث أوراق متماثلة والورقتين الأخريين أيضًا متماثلتين. مثال: ثلاث سبعات وثلاثتين.

مـن خلفـه مالـت ديمتريا علـى كامل وهـي تلـف ذراعها حول كتفه بخفر وتقترب من جانب وجهه تلفحه بأنفاسـها الساخنة وهي تمعن النظر في الأوراق التي بيده. رفعت عينيها ناظرة صوب ليڤون محركـة حاجبيهـا مرتيـن متتاليتين وهي تفـرد إبهامها وسـبابتها في نفس التوالي مخطرة إياه أن بيد كامل زوجين متشابهين من الأوراق قبل أن تسحب نفسها وهي تهمس في أذن زوجها:

- ورقك يكسب يا حبيبي.

أخذ ليڤون يسحب الورقة تلو الأخرى من على الطاولة وضربات قلبـه تتدافع؛ الأولى عشـرة قلـوب تلاها اثنان قلـوب. توقف قليلا وهـو يحبس أنفاسـه ويقلب الورقـة الأخيرة ليجدها ولـد القلوب: أصبح بيده فلوش[16] كما تمنى. كاد يتخلى عن حرفيته كلاعب بأن يصرخ مهللا ولكنه أعمل كل ما استطاع حتى لا يظهر للقابع أمامه حسن طالعه.

خلـع ليڤون نظارته إذ أراد أن يرى نظـرة كامل دون تلوين لحظة يكشفان أوراقهما:

- ورقك يا صديقي.

بثقة كشف كامل ورقه وبصوت واثق أتبع ذلك:

(16) فلوش في لعبة البوكر عندما تكون الورقات الخمس بيد اللاعب من علامة واحدة. مثال: خمس ورقات من فئة القلوب.

- زوجان.. ثلاثتان وسبعتان.

علت ضحكة ليڤون وهو يصيح:

- فلوش قلوب! تخسر يا كامل !.. مبروك عليّ الشيفروليه الديلوكس.

هذه الليلة لم يرضَ ليڤون أن يترك كامل يعود إلى بيته بالمبتديان دون أن يوصله بسيارته التي اكتسبها فتبدل عليها الملاك تبدل أوراق اللعب في أيديهم. حين وصلا إلى المنيرة وقبل أن ينزل صديقه من السيارة سأله دون رفق:

- ديونك زادت قوي يا كامل.. متى السداد؟

- نلعب عليها غدا يا ليڤون.

- أنا خلصت لعب معك يا كامل.. قل لي متى تسدد كمبيالاتك؟

29

كان البكباشـي عبد الرحمن قدري منهكا مثل كل زملائه بالقسم المخصوص[17] من كثرة الأحداث التي تمر بها البلاد وتواليها دون توقف. من بين الأوراق التي على مكتبه اختار أن يعيد قراءة التقرير الذي أثبتت الأسابيع القليلة الماضية صحة محتواه:

محافظة القاهرة

بوليس مدينة القاهرة

القلم السياسي 462 «سري- سياسي»

حضرة صاحب العزة/ مدير عام إدارة عموم الأمن العام.

أتشـرف بأن أخبر عزتكم بأننا علمنا بمناسـبة ما ينشـر في الجرائد هذه الأيام عن الفظائع التي يرتكبها الصهيونيون في فلسطين ضد العرب، أن جماعة الإخوان المسـلمين والشبان المسلمين ومصر الفتاة يعدون العدة للاعتداء على اليهـود المقيميـن بالقطر المصـري، وعلى محلاتهم التجاريـة، وبصفة خاصة

---

(17) القسم المخصوص هو الذي أصبح القلم السياسي ثم تحول إلى مباحث أمن الدولة وحاليًا الأمن الوطني.

الأثرياء منهم وذلك انتقاما لما حدث للعرب بفلسطين. وقد أعطينا التعليمات اللازمة للفرق لاتخاذ الاحتياطات لملاحظة الحالة والمحافظة على أرواح اليهود ومحال أعمالهم. وهذا لعزتكم للإحاطة. وتفضلوا عزتكم بقبول فائق الاحترام..

تحريرًا في 1948/5/1

حكمدار بوليس مصر(18)

كانت مصر تمر بأوقات عصيبة في هذه الفترة ومعها يزداد حمل من في مثل موقعه. فما بين حرب بفلسطين واضطرابات متوالية بداخل الوطن أصبح القسم المخصوص في حالة استنفار مستمرة. كم الأحداث المتوالية والتدبيرات التي يتم كشفها يومًا تلو الآخر جعله هو وزملاؤه في وضعية تأهب وهم يقومون بحماية الوطن من المتربصين به في الداخل والخارج.

لم يكن يدري أن زائره التالي آتٍ لرؤيته بخصوص الموضوع عينه؛ فقد تصور أن اللقاء الذي طلبه ابن خاله المحامي اجتماعي في المقِام الأول. لم يكد يضع التقرير من يده حتى سمع نقرًا خفيفًا على باب مكتبه تبعه دخول ضيفه. بعد تبادل التحيات والاطمئنان على الأهل والقليل من عتاب عدم السؤال من الطرفين بادره ابن خاله:

---

(18) الرسالة من ملفات البوليس السياسي المصري عام 1948م.

- جئتك هذه المرة بصفتي محاميًا ونيابة عن موكل.

- خير يا دكتور؟

بدأ المحامي في شرح سبب زيارته؛ أحد موكليه عضو في جماعة الإخوان المسلمين تقريبا منذ تأسست، ومؤخرا وبعد أحداث معينة أثرت فيه قرر ترك الجماعة. لم يفهم الضابطَ دوره فيما سرد ضيفه ولكن الأخير عاد شارحًا إن موكله أصبحت لديه محاذير على الجماعة لذا ارتأى أن يدلي بما لديه من معلومات لأجهزة الدولة. ما لديه ليست معلومات ولا أدلة على شيء بعينه ولكنها مشاهدات اختبرها الرجل كعضو فاعل في الجماعة. أسهب المحامي في التأكيد على أن موكله لم يكن قياديًا في أي وقت من الأوقات وأن انضمامه أساسا كان واستمر بواعز ديني ومن أجل ما تصوره خيرًا للمجتمع. حين انتهى من سرده سأل البكباشي:

- عظيم.. متى أستطيع مقابلته لاستجوابه؟

رد المحامي بهدوء:

- لن تقابله وأرجوك ألا تسألني عن اسمه فهذه شروطه للتعاون مع القسم المخصوص.. إذا قبلتها فسأسلمك الآن تقريرًا مكتوبًا بكل ما يريدكم أن تعرفوه.

استمر الضابط يحاول ليقنع زائره أن يرتب لقاءً مع موكله دون جدوى فاستجاب لشروطه واستلم منه التقرير، بيد أنه قبل أن يغادره طلب منه مرة أخرى:

– حاول تقنعه يقابلني.

وعده ابن خاله بالمحاولة من باب الأدب واللياقة وهو يعلم أنه مَن نصح موكله بكتابة التقرير وعدم تقديمه بنفسه ولا الكشف عن هويته. خرج من مكتب القسم المخصوص وتوجه من فوره إلى مكتبه بشارع قصر النيل. وقت دخوله البناية لاحظ اللافتة القديمة التي ما زالت تحمل اسم المرحوم والده: عزت صفوت المحامي.

صعد درجات السلم إلى الطابق الأول فاستقبلته لافتة مكتبه المحفورة بلون ذهبي مطفأ على أرضية سوداء براقة:

الدكتور مختار صفوت

المحامي

الأستاذ بكلية حقوق جامعة فؤاد الأول

حين دخل إلى مكتبه وكعادته ثبت نظره على آخر الطرقة المؤدية إلى حجرة مكتبه متحاشيًا النظر نحو الجلوس من عملائه تفاديا لأي إخلالَ بنظام دقيق اختاره لتسيير مكتبه. لم يكد يجلس حتى دخل عليه السكرتير:

– الخواجة ليفون كركوريان في انتظار حضرتك منذ أكثر من ساعة.. والده إدوارد كان من زبائننا.

- محتاج أعمل تليفون قبل أن أراه.. استأذنه في بضع دقائق أخرى.

من فوره رفع سماعة التليفون وطلب من النادل الاتصال برقم في الإسماعيلية وفي خلال لحظات جاءه صوت الحاج عبد العليم الأهواني:

- طمئني يا دكتور مختار.

لاحظ مختار اللوعة في صوت زبون والده القديم الذي جاءه فيما أسماه خدمة العمر التي لن ينساها.

- اطمئن يا حاج كله تم كما اتّفقنا.. طبعًا ألح في معرفة اسم حلمي ولكني أفهمته أن ذلك لن يحدث.. المهم أن حلمي يبتعد عنهم يا حاج لأني على ما فهمت الأيام القادمة ستكون صعبة والنقراشي باشا مُصر على محاربتهم.

- موضوع حلمي مع الإخوان انتهى تمامًا يا بني.. طيب والموضوع الثاني.

- كما اتفقنا، محامٍ من مكتبي أوصل ألف جنيه لأهل القتيلة راشيل التي وجدوها تحت الأنقاض وثلاثمائة جنيه لكل مصاب بما فيهم دانيال، وأبلغهم أن هذه الأموال من فاعل خير وعندي إيصالات استلامهم.

- صادق يا دكتور مختار.. أشكرك وربنا يديم المعروف.

حين انتهى من مكالمته داس على زر الجرس في إشارة لسكرتيره ليدخل المقابلة التالية.

دخل ليڤون حاملًا ملفًّا متخمًا بالأوراق وتبعته سيدة في نهاية الثلاثينيات طغى على جميع أجزاء جسدها معالم الحمل ومع هذا أفشى وجهها المتخم بجمال طلعة توارت خلف سمنة نهاية الحمل.

لم يعطِ الأرمني محاميه فرصة لترحيب أو مقدمات:

- دكتور مختار هذا الملف به كمبيالات بحوالي خمسين ألف جنيه والموقع عليها لا ينوي الدفع لسببين: أولهما أنه لا يملك حتى عشر هذا المبلغ، وثانيهما أنه يستهين بي وبجديتي في تحصيلها.

لم يجد ليڤون حرجًا في أن يصارح مختار بأن هذه ديون قمار وإن كان عاد ورده إلى قصته الأصلية بأن كامل عارف أجبره على هذا الأسلوب منذ ضن عليه بنصيبه العادل في صفقات الجيش النيوزيلاندي التي جاء هو بها. ثم أردف يشرح للمحامي أن كاملًا قد أهدر أغلب الثروة التي كونها على نزواته ومقتنيات سفيهة لا قيمة لها ولذلك فهو يعلم أنه لن يقدر يوما على سداد ولو جزء من قيمة هذه الكمبيالات.

- إذا كنت تعرف أنه غير قادر على السداد فما الحل في رأيك؟

- لـه عائلـة وبالـذات زوجـة تسـتطيع إنقـاذه إذا ضاقـت عليـه الدوائـر.. أريد مـن حضرتك أن تحرك الدعـاوى من أجل تحصيل هذه الكمبيالات ثم في الوقت المناسب أنا متأكد أن زوجته ستنقذه وللأمانـة أنا لا أريد سـوى نصف المبلغ؛ هذا حقـي ولا أريَد زيادة عليه.

قبـل أن يغادر ليڤون مكتب مختار صفـوت توقف لحظة متذكرًا شيئا آخر:

- نسـيت أعرف حضرتك على أخت المـدام: ديمتريا.. الزوجة الثانية لكامل عارف صاحب الكمبيالات.. ديمتريا تريد رفع دعوى طلاق ونفقة لها وللطفل الذي ببطنها يا متر.

بعـد أن بـدأ فـي إجـراءات الدعـوى، وبعـد عـدة محـاولات لمفاوضـة كامل وإقناعه بدفـع ولو جزء من مديونيتـه تحقق مختار من صحة كلام ليڤون بأن غريمه المدين لا طاقة له بسـداد ولو جزء من متأخراته. كان أسـتاذ القانون ممـن يؤمنون بأن القانون أداة ردع استـباقي لا وسـيلة عقابية وأنـه بالحكمة من الممكـن الوصول إلى النتائـج المرجوة دون تفعيل الأذى الـذي بالقانون، دون أن يصاب أي طـرف بأضـرار وأنـه بالذات فـي القضايـا الماليـة حبس طرف لا يفيـد خصمـه بقدر ما يضـره في معظـم الأحيان. فكر فـي أنه إذا

كانت زوجة كامل ثرية وتستطيع إنقاذه فلا داعي لأن يأخذ عليه أحكامًا مسبقة قبل أن يبدأ مفاوضتها، فبالتأكيد لن تريد لزوجها أن يتعرض لمهانة إذا ما أحسن عرض خطورة الموقف عليها. اتصل بليڤون تليفونيًا فوافقه على توجهه ليسأله المحامي:

- ما اسم حرم كامل عارف كي أتصل بها؟

- نوال عارف.. بنت عمه.

صمت طال وامتد أصاب مختار حين سمع الاسم حتى إن ليڤون ظن أن الاتصال قد قطع فظل يحاول إعادته ليجد الخط مشغولا إذ استمرت سماعة التليفون مرفوعة على أذن مختار الذي ظل ساهما مشدوها وصوت ليڤون يتحول إلى صدى مستمر لا يتوقف داخل رأسه:

- نوال عارف.. بنت عمه.

أسبوعان وهو يصارع نفسه من أجل أن يصل لقرار. تأرجحت اختياراته بين ترك القضية برمتها من أجل ألا يكون سببا لأذية نوال ذات المعزة الخاصة لديه إلى أن يحاول إقناع ليڤون أن يترك كامل من أجل أسرته. فكر في المعقول واللا معقول قبل أن يصل إلى قناعة أن وجوده في هذه القضية تدبير إلهي كي يستطيع أن يقلل الضرر الذي قد يقع على نوال وكي يحميها من جشع وأطماع سواء

زوجهـا أو صديقـه. أدرك أنه بقرار اسـتمراره في خـوض غمار هذا الموضوع الشـائك سـيعبر منطقة أخلاقية رمادية وقد تكون سـوداء في نظو المتشددين من فقهاء القانون.

طلب من سـكرتيره أن يطلبها ويحول له المكالمة فجاءه صوتها تماما كما سمعه في آخر لقاء لهما في باريس:

- معقولة يا مختار.. مفاجأة جميلة!

باقتضاب وشيء من التلعثم جاء رده:

- نوال.. ممكن نتقابل؟

فـي مكتبـه كانـت المقابلـة، يومهـا اسـتمر فـي إخفاء مشـاعره المتضاربة وأقواها سعادته البالغة لرؤياها. أجلسها أمامه وأسرع في صعقها بما يحمل من ألم وهم في الأرجح سـيصيبان أسرتها. شرح لهـا أنه حاول أن يعلي صوت العقل لدى زوجها مرارا ولكنه رفض ساخرا من أصل المديونية في الأساس مؤكدا كل مرة:

- أنا وليڤون كنا نلعب.

اسـتمر في إسـهاب وتؤدة في ذات الوقت يشـرح لنـوال تبعات القضيـة وقسـوة الأحكام التي تنتظر زوجها إن لـم يدفع ما يدين به. فقـط تردد في إطلاعها علـى القضية الأخرى المـوكل هو فيها ضد كامـل.. قضيـة طـلاق ديمتريـا ونفقتها هـي ورضيعهـا. رأى أمامه

امرأة محطمة فلم يرد لمن أعزها قلبه يوما حطاما إضافيا. استدعى حرفيته كمحام كي يفصل بين مشاعر شخصية وبين أن يزيد مرارها بأقسى ما يمكن أن يجرح امرأة، فسكت عن إخبارها بما اعتبره خارج نطاق القضية التي أراد عرضها عليها هذا اليوم. قرب انتهائه مما أراد سرده شرح لها أن غرضه من إخطارها لم يكن إنقاذ كامل من حبس بقدر ما هو رغبة منه في أن يجنبها هي وابنتها ويلات نظرة مجتمعية متدنية من إثر جرم ارتكبه زوجها.

استمرت نوال منصتة وقد أمسكت وجهها بيديها من كل جانب وارتكزت بذراعيها على فخذيها وتسمرت عيناها على موضع قدميها على السجادة الشيرازي الأنيقة بمكتب مختار. حين ظنته انتهى رفعتِ رأسها ونظرت إليه طويلا، نظرة دون تركيز إذ إن مقلتيها لم تكن بهما رؤية من الأساس؛ فقد أصبح كل ما تراه سواد أيامها مع المدعو كامل. بعد حين استعادت زمام نفسها، أطرقت قبل أن ترفع رأسها نحو مختار ووجهها متحجر وقد خلا من أي آثار لمشاعر. مرة أو مرتين تفتح فاها لتتكلم فلا يخرج صوت ولا تسمع كلمات بدا أنها تحجرت بداخلها. أخذت نفسًا عميقًا طويلًا استجمعت به بقايا وشتات ما انفرط بداخلها قبل أن تتمكن بصوت متحشرج يغلفه الإصرار:

- اسجنه يا مختار.

قالتها ولم تترك فرصة أن يراجعها إذ حملت حقيبة يدها، وقامت مغادرة؛ في حين تجمد المحامي محله من هول مفاجأة ردة فعلها.

هرعت نوال نازلة السلالم، وهي مذهولة من طلبها لمختار. حين وصلت عند باب العمارة توقفت وما لبثت أن أذهلت البواب حين جلست بجانبه على دكته. لم تستطع بكاءً فقد توقفت عن ذلك منذ أمد فيما يخص زوجها وزواجها. وجوه أخذت تموج بذهنها؛ رأت جدتها خجلة وهي تنظر نحوها وهي تعلم كيف ظلمتها يوم اختارت أن تضحي بها من أجل أناني مثل ابن عمها. ورأت عمها وهو قعيد لا حول له ولا قوة من إثر عبث كامل بمقدراته؛ وبهيجة عابسة مهمومة ومع هذا لا تشتكي من أكل أخيها لحقوقها. تخيلت نصف ابتسامة درية شفيق وهي تنظر إليها مشفقة تلومها أنها لم تقف لما أرادت، وكلود يذكرها أن أحيانا لا مناص من الثورة. جاءها طيف درية الصغيرة وهي شابة تعتب عليها أنها لم تؤمن لها حقوقها وحريتها وارتضت لها أن تعيش بمعايير زمن جدتها، ليتلو صغيرتها أبوها الذي جاءها مبتسما مستبشرا تماما كما اعتادته وأحبته فيهمس في أذنيها أنه ينتظر منها أن تأتي أشياء عظيمة في حياتها. حتى بشير وإدريس رأتهما وإن كانا دون ابتسامة وبعبوس لم تعتده من النوبيين اللذين سرعان ما ذابا في ضبابية ذهنها الذي احتله كامل متبخترًا منتشيًا بسيادته عليها فوجدت نفسها تتحسس موضع صفعتها وتشعر بآلام لكزاته وكأنها تلقتها لحظتها. حمرة خجل لونت

وجهها وهي تشعر أنها خذلت أباها ولم تحقق حلمه باستكانتها واستسلامها وعدم مقاومتها أو رفضها لما لم يكن من المفروض أن تقبله وكان بيدها أن تغيره. امتلأت بأحلام تحطمت وذكريات حطمتها؛ احتواها ضعف وخنوع سأمت تحكمهما فيها وتلاطمهما بها. ثم عاد ذهنها يسيطر عليه مشهد لدرية الصغيرة دامعة باكية مكسورة لا تنظر إليها، بل تنظر صوب شبح لكامل بلباس سجنه هذه المرة دون انتشاء، بل كان مكسورا، ووجهه شاحبًا وملامحه ممغوصة، دون ابتسامة لا مبالاته المعتادة.

كانت قد مرت دقائق على خروجها قبل أن يدخل السكرتير على مختار ثانية معلنًا:

- مدام نوال تريد رؤية حضرتك.

حين دخلت هذه المرة لم تكن المرأة معتادة الاستكانة والرضوخ، بل كانت تلك المملوءة شراسة، والممسكة بالقياد، والمتحكمة في زمام الأمور:

- عندي عمارة سأشارك ليڤون على نصفها مقابل المديونية.. هناك شرط واحد مقابل تدخلي لإنهاء هذه القصة، وستكون أنت مسئولًا عنه.. طلاقي من كامل.

فبراير 1951



30

اكتظت قاعة أيوارت التي تصدرتها صورة الراحلة هدى شعراوي[19] بسيدات مجتمع مصر وهن يستمعن لكلمات زعيماتهن الواحدة تلو الأخرى. حين قدمت سيزا نبراوي خليفة هدى شعراوي في رئاسة الاتحاد النسائي درية شفيق لتتحدث، عم القاعة هدوء مملوء بالهمس والترقب من الحاضرات.

كعادتها وقفت درية رافعة رأسها وعيناها متقدتان، فما هي إلا ثوانٍ حتى فرض حضورها على الهمس أن يندثر لتصبح القاعة حضورا وجدرانا في وضع الاستعداد لسماعها:

اجتماعنا اليوم ليس مؤتمرًا بل هو برلمان؛ وبرلمان حقيقي! برلمان المرأة.. نحن نصف الأمة! واليوم نحن هنا لنمثل أمل ويأس هذا النصف المهم جدًّا من الأمة. من حسن الحظ أن لقاءنا في نفس وقت ومنطقة برلمان النصف الآخر من هذه الأمة. هم مجتمعون على بعد خطوات قليلة منا؛ لذا أقترح أن نذهب إليهم بقوة إيماننا بحقوقنا ونخبر النواب والشيوخ المجتمعين أن اجتماعاتهم غير

(19) كان شرط سيزا نبراوي لحضور الاتحاد النسائي هذا المؤتمر أن تتصدر صورة هدى شعراوي القاعة.

شرعية طالما ممثلاتنا مستبعدات ومقصيات وأن البرلمان المصري لا يمكن أن يعد ممثلا عن حق للأمة المصرية دون تمثيل نسائي وحتى يسمح للمرأة المصرية بعضويته. دعونا نذهب ونواجههم بتلك الحقيقة في وجوههم. هيا بنا نطالب بحقوقنا. هيا بنا نجعل اجتماع البرلمانيين واحدًا.. إلى البرلمان!!

من شارع الشيخ ريحان انطلقت الألف وخمسمائة سيدة تقودهن درية وسيزا فدلفن يسارًا إلى شارع قصر العيني باتجاه مجلس النواب. وسطهن كانت نوال يهتف قلبها مع الجموع قبلِ شفتيها:

- المساواة.. المساواة..

هتاف نوال بكامل وجدانها جعل شريط ذكريات طويل يغلفها. أدركت أنها في وسط هذا الجمع كي تضمن لابنتها ألا تغبن في حياتها مثلها. أرادت أن تغير أوضاعًا حتى يكون لدرية الصغيرة قدرة وحقوقًا لم تستطعها هي بفعل مجتمع اختار أن يهمش نصفه. تذكرت كلمات كلود عن الضيم التي عاشته النساء في عالمنا منذ الخليقة فصدحت هاتفة بآخر حنجرتها. لم تدرِ لما أحست بالفرنسي وطيفه وكأنهما يلازمانها في المسيرة؛ فقط أيقنت أن كلود كان سيفخر بها وهي تلفظ قيودًا حددت حياتها طويلا دون منطق اللهم إلا أحكام العادة وسلاسل التقاليد. لن تسمح بتصدع حياة دريتها ولن تقبل لها أن تذوق قهرًا لمجرد أنها ولدت امرأة. كلما تقدمت

المسيرة كلما رقص قلبها طربا من وقع أنها وإن بعد تأخير غدت على درب أن تصبح فاعلة ذات إرادة تأخذ لا تستأذن فيما تطلب أو تريد. كم من المشاعر المتدافعة ملأتها لعل الغالب فيها قشعريرة فخار لم تكن تدرك أنها ما زالت بها إثر سنوات افتقدت فيها فرديتها وتفردها وتوارت خلالها كرامتها وارتضت تبعية ظالمة.

حين أشرفن على ساحة البرلمان تصدى لهن رجال الحرس وأغلقوا الباب الداخلي. تكدس الشارع بأجساد الناعمات فسددنه، وعلا الهتاف بأصواتهن تهز الجماد وتهز بأصدائها مقاعد المجتمعين بالداخل.

«المساواة.. المساواة»..

لم يستطع الرجال بالداخل استمرار تجاهل ذوات العزيمة التي لا تفل بالخارج طويلا، فكان أن بعثوا في طلب وفد يمثلهن للدخول.

استمرت وقفة الجموع في الصخب والهتاف وممثلاتهن بالداخل. وسط الواقفات مادت المشاعر بنوال؛ مشاعر متباينة بالحنق والغضب على حقوق مهدرة وبالفخر والسعادة لأنها واقفة كريمة مرفوعة الرأس قوية ومستقوية بمن حولها ممن طالت معاناتهن. لم تدرِ لمَ ألح على ذهنها السؤال الذي لم يستطع مختار أن يحتويه يومًا فصوبه نحوها في أحد لقاءاتهما:

- لِمَ رفضتيني يوم طلبت يدك؟

حتى يومها هذا لم تجد إجابة عما لم تعلم بحدوثه أصلا فأبت أن ترد عن جدتها التي دفنت إجابة سؤاله معها في قبرها. فقط أدركت أن من رأته يخرج من بيتها ذلك اليوم كان بالفعل مختار وأن رفيقه يومها بالتأكيد كان والده؛ لم تكن تتخيل ولا كان بها هذيان ذلك اليوم. من يوم سألها هذا السؤال خطر ببالها مرات عدة

- ماذا لو ؟

ولكن اليوم لم يكن ليؤرق نوال البحث عن إجابة للسؤال فقد تصالحت مع زمنها السابق وجعلت مما مرت به نبراس رفضها لمزيد من قهر أو ظلم. لم يعد يهمها إن فاتتها فرصة وإن عزمت على أن تملك قياد ما هو باق في عمرها لا يُملى عليها ولا تُجبر مرة أخرى على ما لا تريد. لم يعذبها ندم على ما فات بقدر تطلعها لما هو قادم وإصرارها على أن تكون ترجمة لما بها من قدرة ؛ ستغدو ما حلم به أبوها نيابة عنها امرأة ذات إرادة وقرار.

استمرت الواقفات دون كلل أو ملل حتى خرجت ممثلاتهن من الداخل لتقف درية أمامهن وتعلنهن:

- مفاوضتنا أسفرت عن وعد صريح بأن المرأة المصرية ستحصل على حقوقها السياسية.

وسط التصفيق المدوي والهتاف المتوالي علا صوت لم يعد ضعيفًا من وسط المتظاهرات:

- سنجبرهم على احترام وعدهم!

حين بدأ الجمع في الانفضاض بدأت السيدات في الالتفاف والتحرك في اتجاهات مختلفة منصرفات وهن في حالة انتشاء بما حققن. تحركت نوال صوب ما كان مقدمة المسيرة عكس اتجاه الأغلبية. كان قلبها ينبض مستثارا وهي تقترب خطوة تلو الأخرى حيث وقفت درية وسيزا والأخريات اللوائي خرجن لتوهن من داخل البرلمان. على استحياء توقفت أمام درية التي مالبثت أن لاحظت وجودها فأصدرت صرخة فرح وهي ترى زميلة بعثتها التي انقطعت عنها منذ ودعتها في باريس. أقدمت الزعيمة عليها لتحتضنها ودموعهما تبلل وجهيهما سعادة بلقاء لم يكن في الحسبان واشتياقًا فرضته وحشة وحبًا متبادلًا لم ينضب في قلبيهما يوما. في أذنيها وهي تحتضنها أطربها صوت درية وهي تقول :

- أوحشتيني يا نوال.

لم يتمازج بداخلها شعوران هذه المرة ، فاكتفت بإعجابها بصديقتها دون غيرة أصبح لا مكان ولا سبب لها وهما متساويتان في وقفتهما من أجل ما تؤمنان به من حقوق حان زمن انتزاعها.

حين عادت نوال إلى بيتها هرعت إلى حجرة رسمها التي لم تدخلها منذ يوم الصفعة. في عجالة فتحت الدرج، وأخرجت رسمة كلود ومن درج آخر أخرجت أقلام تلوين هرمت من عدم الاستعمال.

تعمدت وهي تلون الرسمة أن تجعل وجهها اليافع كما أبدع كلود رسمه متوردا منيرا بألوان مملوءة حياة ومتقدة . تألقت في استخدام الألوان فأعطت الرسم حياة، ولحظة انتهت أخذت الرسم وهرولت وهي تتمعنه صوب حجرة ابنتها. شهقت صغيرتها إعجابا وعيناها تستمتعان بالإبداع الذي بيد أمها. لفت نوال ذراعها حول درية وضمتها إليها في رقة وجعلتا تقرآن سويا ما سطره كلود أسفل رسمته بسن جرافيت كث:

حقّ لكِ أن تشتهي ألوان الحياة فلا تغزلي من ظلالها قيودكِ...

وما حيواتنا إلا قصص قصيرة

فأنى للراوي أن يطيلا؟!

هشام الخشن


Twitter: @ketab_n

الخواتيم

نوال عارف

بعد طلاقها من كامل التحقت نوال بوظيفة مدرسة رسم بمدرسة الميردي ديو وكرّست حياتها لتربية ابنتها درية. سافرت مع درية إلى باريس حين التحقت بالسوربون لتحصل على درجة الدكتوراه في القانون. وهي في باريس التقت كلود واستعادا صداقتهما ولكنها رفضت عرضه للزواج. استمرت في عيشتها في باريس مع ابنتها بعد أن تزوجت درية عارف من مهاجر عراقي كان أيضا يدرس القانون. توفيت نوال في أواخر التسعينيات تاركة ابنتها وثلاثة أحفاد.

درية شفيق

استمرت درية شفيق في قيادتها وكفاحها من أجل حقوق المرأة المصرية. في عام 1954 وعقب احتجاجها على عدم ضم أي امرأة إلى لجنة كتابة دستور مصر وعدها الرئيس محمد نجيب بتعديل الوضع ولم يفِ بوعده. في عام 1957 قام جمال عبد الناصر بوضعها تحت الإقامة الجبرية بمنزلها نتيجة خطاب أرسلته للأمم المتحدة تندد بالديكتاتورية في مصر. استمر تحديد إقامتها ثلاث سنوات وبعدها استمرت درية

شفيق في عزلتها شبه التامة إلى أن توفيت عام 1975 إثر سقوطها من شرفة منزلها بالزمالك.

كامل عارف

انتهى كامل مسجونا في أوائل الستينيات جراء ديون لم يستطع سدادها، وتوفي في السجن إثر سرطان الكبد الذي أرجع الأطباء إصابته به لإدمانه الخمر.

أحمد السكري

بعد فصله من جماعة الإخوان المسلمين قام بكتابة حوالي 20 مقالا يهاجم فيها البنا وقرار فصله، ثم التزم الصمت وتوارى عن الحياة العامة بعد ثورة يوليو. في الثمانينيات أعلن أنه سيقوم بكتابة مذكراته فكلفت الجماعة المحامي مختار نوح وهو حفيد شقيقة السكري بأن يطلب منه ألا يفعل ذلك وقد استجاب السكري فعزف عن كتابة المذكرات إلى أن توفي عام 1991 .

ديمتريا وإيلينا وليفون

هاجروا جميعا إلى أستراليا في منتصف الخمسينيات ومعهم أنطونيادس (طوني) ابن ديمتريا من كامل في وقت هجرة كثير من الأجانب من مصر وبعد أن باعوا نصيبهم في عمارة المبتديان لنوال. انقطعت أخبارهم منذ هجرتهم ولم يُعرف مصيرهم من وقتها.



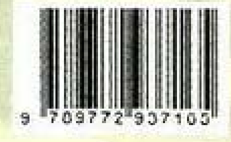
«حين تعرف عني كل هذا، أكيد يا أستاذ لا تتجرأ وتطلب مني أن أتبرع لما يتبرع له الإنجليز. اذهب يا حلمي لحسن أفندي البنا واسأله لماذا أخذ من البارون دي بنوا خمسمائة جنيه، وتحت أي بند؟ إلا طبعًا لو رئيس شركة القنال يبتغي وجه الله الكريم، وينوي أن يصلي معكم كل جمعة».

***

بين انطلاق حركة المرأة المصرية، وتأسيس جمعية الإخوان المسلمين، عام 1928، تدور أحداث هذه الرواية، التي تمزج ببراعة بين واقعٍ تحوّل إلى تاريخ، وخيالٍ خلّاق، يسعى إلى تلوين اللوحة التاريخية التي انتقلت إلينا بالجرافيت، حيث لا مجال إلا للونين الأسود والأبيض، من خلال شخصية نوال، التي تتمرد على الواقع بألوانٍ تبعث في لوحتها بهجة الحياة، وتتجاوز غيرتها من صديقتها درية شفيق، حين تقف إلى جوارها من أجل ما تؤمنان به من حقوقٍ حان زمن انتزاعها.



هشام الخشن، مهندس مدني وروائي مصري، من مواليد القاهرة عام 1963. أول أعماله مجموعة قصصية بعنوان: «حكايات مصرية جدًا» صدرت في 2010، وتلاها روايتان: «ما وراء الأبواب»، و«7 أيام في التحرير» عام 2011، وتم إنتاج الثانية كمسلسل تلفزيوني، كما يجري تحويل الأولى كذلك إلى مسلسل. في عام 2012 صدرت له رواية: «آدم المصري»، وفي عام 2013 مجموعة قصصية باسم: «دويتو».



مكتبة الدار العربية للكتاب